دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

وحكايات أخرى

نهاية المتآمر الفرخعون

السماهي إبراهيم

نهاية المتآمر الفرخعون

نهاية المتآمر الفرخعون

وحكايات أخرى

الساهي إبراهيم

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

العنوان: نهاية المتآمر الفرخعون

النوع الأدبي: حكايات مسرحية

المؤلف: إبراهيم محمد ساهي آل عبدالله

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

نهاية المتآمر "الفرخعون"

غزو أهل النعيم للجحيم

قهوة شعبية في الحارة القديمة، وأمامها منظر الميدان العام الكبير والجديد الإنشاء بعد إزالة القديم، وقد أحتلت كراسي المقهى أعداد من الزبائن معظمهم يصنف نفسه من الأدباء أو من الصحفيين والبعض ينظر اليهم انهم عامة، ومن بينهم أيضا زبون مميز وهو من رواد القهوة القدماء ويقضي وقته كالمعتاد مستمتعا على طريقته، حيث يجلس تارة في حضن أحدهم وتارة على رأس آخر ثم ينتقل محلقا ليجلس على أكتاف آخر مدليا ساقيه المريعة المنظر ويقفز عنه هنا وهناك أو يسير بين الموائد وهو يحجل بخطواته مللا أو رقصا ويتوقف لينظر إلى مجموعة ما أو يحدق في شخص باشمئزاز أو بغطرسة أو للاستهزاء به، وبعد أن ينهي جولاته في الممرات قد يقفز فجأة ليجلس أو يضطجع فوق أحد الطاولات، وكل هذا يحدث منه ولكن وهو في طبيعته أو صورته الخفية عن العيون، لأنه في حقيقته أحد الأبالسة ومن سكان هذه الحارة ورواد المقهى القدماء، وقد أحب أن يقضي جل وقته في هذه القهوة ليستمتع بممارسة هوايته المفضلة في السخرية من زبائنها من الإنس من بني آدم ويستمتع بما يحبك بينهم من الفتن في فصول من المؤامرات وما يفجر بينهم من الخناقات وتجديدها كلما اصطلحوا.

وما لم يعرف عنه أن هذا الإبليس الذي يبدو ظريفا في شكله ومرحه بينما يقضي بعض من وقت فراغه في هذا المقهى الشعبي العريق الشهرة ما هو إلا " الفرخعون"!

صاحب هذا الاسم في حقيقته من أخطر الأبالسة في الكون كما أنه أحد أبناء إمبراطور مملكة الجن بل ومن أبرع الموهوبين والمتفانين في خدمة مبادئ الأب إبليس الأكبر. ويشاهد في عصر هذا اليوم كعادته في الأيام التي يرتاد فيها مقهى الحارة القديمة وقد أفترسه الملل وهو يجلس في حضن أحد الرواد من بني الانس واضعا احد رجليه على الأخرى بينما هو مستمر في تقليب وجهه وبصره بين مجموعات زبائن المقهى من الآدميين، ومعظمهم أصدقاء وكبار السن من الموظفين والعسكريين المتقاعدين القدماء وممن هم في قائمة الانتظار الوشيكة وفيهم أيضا صحافيون وأعداد من الأدباء والكتاب ومدعيي الثقافة ومنهم فنانون في الموسيقى والرسم والشعر، وضمنهم رياضيون معتزلون كانوا ذات يوم الحديث المشوق للناس والصحافة، وهؤلاء يأخذون مواقعهم الثابتة في مجموعات حول عدد معين من الموائد أو الطاولات في تلك "القهوة" الشعبية العامرة دوما بزبائنها منذ بزوغ نور الصباح والمتميزة بموقعها التاريخي وشهرتها المعروفة عبر الزمن من خلال أدوارها المؤثرة في الظواهر والأحداث الفكرية والسياسية والاجتماعية التي مرت بالبلدة وبالعالم، وتقع على ناصية شارع رئيسي يخترق البلدة وينتهي في ميدان كبير جدا ملك شعبية وشهرة جارفة ذات يوم في عالم البشر المرئي

قبل تدميره وكان يطلق عليه "ميدان الأحرار والتحرير" حتى تم مؤخرا تخريبه بالكامل لظروف متعددة، ولكنه في العالم الغير مرئي أو الخفي فهو حدث آخر، إذ يتم تجديده باستمرار ويطلق عليه اسم "ميدان الحلم بالحريق"، وتزينه على الدوام التماثيل المتنوعة من الجمر الأحمر وأنصاب مختلفة من النار الملتهبة وتنتشر في كل مكان نوافير متوهجة تطلق ألوان جميله من الشرر المتطاير والذي ينطلق أيضا من خلال فوهات موزعة في وسط وأطراف الميدان والبعض يقذف ألسنة لهب عالية أو شديدة التوهج في استعراضات نارية وضوئية مفتوحة ممتلئة بالإثارة وبما فيه من اللوحات الدعائية والإعلانات المشتعلة عن الشقق الشاعرية الملتهبة ومساكن متأججة مغرية أو بالفلل والقصور المهجورة والمخفضة الأسعار المشتركة مع بني الإنسان في البلدة وحول العالم، وعن رحلات للمقابر البشرية القديمة للسياحة وللإقامة الدائمة أو الموقتة حسب الرغبة، ودعايات منوعة عن المطاعم الحمراء والشواطئ النارية المتقدة بلا انطفاء في الأرض والكواكب في أجمل المجرات وعن أمتع وسائل المواصلات وطرقها المتنوعة. ولا يرى البشر أي شيء من جميع ذلك الجمال الشيطاني الأحمر والملتهب من حولهم سوى نصبهم الحجرية المهدمة وبقايا تماثيل محطمة لبعض الزعماء وأبطال الثورات متناثرة في جوانب حديقة واسعة متيبسة الأشجار تلاشت خضرتها نهائيا بعد أن أهلكها الإهمال المتعاقب.

وتحدث عادة في المقهى إصابة الفرخعون بالملل الخانق ويعبر عن ذلك بإظهار حركات الاشمئزاز والشعور بالغثيان والقيام بالإشارات والتصرفات القذرة وبخاصة عندما يستمع إلى ما يتحدث به الزبائن الآدميين عن الخير والنصائح عن ارتكاب المحرمات وفساد الأخلاق فيحاول أن يسلي نفسه حينا بالتجاهل أو التقزز أو بالبحث عن المتعة التنفيس بتلك الأفعال وبما يجد في أقوالهم ما يفجر فيه الضحك وفيما يخنس به فيهم من أشياء وما يهمس به في نفوس آخرين فيتبادلون في ما بينهم وفجأة الشتائم وسيول من اللعنات تنتهي بالصفعات والركل فيبتهج بما يتلقاه من اللعنات منهم كمكافأة له بعد أن يحملوه كشيطان أو إبليس كل ما حدث بينهم وهم يصطلحون أخيرا.

وفي هذا المساء بينما هو مستمر في ألاعيبه والاستمتاع بسماع معزوفات من اللعنات عليه فإذا به يشاهد صديقه العفريت "زعنون" والغائب منذ مدة مقبلا من البعيد في تسكع وحنجلة عبر مسارات الميدان حتى مال باتجاه القهوة، ويعتبر العفريت زعنون من أعز أصدقاء الفرخعون وأقدمهم، وان كان يرى فيه صديقا مملا وسيء المعاشرة ويعرف عنه سرعة التبرم من كل شيء وبكثرة الشكوى من حالات الاكتئاب المستديمة والملازمة له مع حبه للكسل والركود الذي يجعله دائم الادعاء بضيق الحال وبالويل والثبور إلا أنه يظل محبوبا ومفضلا. وكان غادر الحارة ذات يوم قديم وهجر البلدة والبلاد كلها، وقيل انه بسبب شدة ضغوط الملل وقيل عنها أيضا رحلة عمل ولكن العارفين

قالوا وربما بالأصح أنه غادر طلبا للنقاهة بعد أن داهمته الكوابيس المريعة من فرط تعرضه المزمن للاكتئاب وتراكم أحاسيسه بالفشل وتفاقم تذمره من سوء حظه ومن الأوضاع المحيطة به فأصيب بحالة هستيريا التنبؤات وأخذ يهرف بوقوع الكوارث الفظيعة في عالم الأبالسة والشياطين في هذا الزمن، وأصبح يدّعي تفشي البطالة وتزايد تأثيرها في أمته وأشاع أنه يرى تعاظم القلق والمخاوف من اقتراب المستقبل المظلم والمروع لعالم الشياطين، وكان لتزايد سخرية الآخرين بهذه المشاعر ما سبب له الإحباط والحس بضيق العيش على الكرة الأرضية مع زيادة مخاوفه المستقبلية التي يتوقعها في حتمية قادمة للتعايش المسالم مع المخلوقات من بني آدم!

إن في مشاعره هذه الكثير من الحقيقة، إذ بدأت تحدث في عالمهم فعلا حالة من الركود تزامنت مع فترة بزوغ طفرات جامحة ومستمرة من النهضة لبني الإنسان ورافقها تفوقهم السريع والتطورات العجيبة في مظاهر حياتهم العامة وفي تفشي الانحرافات الأخلاقية والسلوكية.

والحق يظهر قوة تطور بني آدم وفي جميع مجالات الحياة الحضارية والاجتماعية والثقافية ومن خلال التفوق في العلوم التكنولوجية والاختراعات في شتى المجالات كالطب والاتصالات والإنشاءات المتطورة على الأرض وفي البحار والفضاء، ولكن أهمها أن البشرية أصبحت أكثر تفوقا في ميادين الشر، وبجميع ألوانه ودرجاته، حيث " تعفرتوا" تماما حتى تجاوزوا ووصلوا لمراحل متقدمة جدا في تطبيقات كل علوم الشر، وبرزوا في كل سبق بتقنيات

الشيطنة كما أنهم بلغوا قمة الجبروت أو "الفرعنة" وتميزوا فيها على عبقريات أعتى الأبالسة وقدرات الجن بل وتقدموا عليهم بآلاف القرون.

ويبدو أن "زعنون" برغم عودته للتو من رحلة الاستجمام الطويلة إلا أنه مازال "بعافية"! أي كما يقال بالمعنى المصري رجع ولم يجد في رحلته الصحة المتوقعة، بل عاد أكثر حسا بالنحس وأشد مرضا بالتعاسة ولم ينل أي خير في كل سفره، وهذا ما ظهر على سحنته من ملامح حزن وتألم وتفجر البؤس في نظراته وفي نبرات صوته وبأنه مازال كالمعتاد غير سعيد وهذا دليل يثبت بأنه حقا يظل زعنون الحقيقي وعاد عكس المنتظر بالتفاقم في سوء حالته النفسية وازدياد اكتئابه، ولكن المدهش أنه سرعان ما أحس بالسعادة وطفر الفرح على تفاصيل وجهه وتحركه فور مشاهدته لأعز أصدقائه فرخعون الذي يجلس على فخذ أحد الزبائن في المقهى وقفزا نحو بعضهما يهتفان بالترحيب والفرح وفي سعادة بهذا اللقاء وعلى طريقتهم الخاصة في التعبير عن مشاعر الود والمحبة وعن الأشواق التي اجتاحتهما وأظهرت قوة التأثر بهذه المفاجأة الغير متوقعة:

- مين؟ ما أصدق!! فرخعون؟ حبيبي!

يا هلا والله!

يا مساء الزفت الأسود وروائح القطران يا حبيبي

فرخعون!

يا سلام على لعنات الدنيا والبلاوي اللي فيها!

أقسم إن شوفتك على القلب تسوى طسْمليارين وتْرخ زِمْعلون لعنة!

بمثل هذه المشاعر الجميلة والأشواق المتفجرة استقبل فرخعون صديقه الغائب وفيها قوة الحب وبكل البهجة والحماس:

- **أهـلا! أهـلا!! يا مساء الظلمة وعفنة الخيش**

بالشحم المخزون يا رفيق زعنـون!

وتابع مظهرا الاهتمام وشدة الفضول:

- **كيف حالك اليوم بعد السفرة السياحية؟ أتمنى تكون**

اشتغلت تمام ورجعت لنا بوافر اللعنات!

وأقسم إني كنت مشتاق لك شوقي لجيفة قبور الأموات. ياه يا لك شوق!

سرعان ما عاد زعنون لحالته النفسية وظهر عليه التذمر وغادرته ملامح السعادة بسرعة صاروخية وأنتشر الاكتئاب على وجهه وتلبد صوته بنغمات الأحزان:

- **أبدا! أبدا يا حبيبي، المسألة كنت مسافر .. وللأسف!**

ما لقيت لي علاج، وحتى الساعة هذي أنا زعلان كثير

ومهموم وحزين جدا في الدنيا يا صاحبي!

وتابع بغمه:

- أخي، صار طول هذا القرن خابور؟

فيتظاهر فرخعون بالمفاجأة وبالحزن لما يسمعه، وهو الأعرف بتباكي صاحبه ولكنه أحب أن يعرف المزيد من التفاصيل حول سفرة الزعنون وكل الأخبار في غيبته الطويلة وما جميع ما حدث له فيها:

- عليك لعنة عظيمة! ليه؟ أفاض عليكم من وافر لعناته!

ولا حرمكم الله من قعر جهنم ..

ويأخذه فرخعون بيد زعنون من شدة الشوق والفضول ليجلسه على ركبة الإنسي المجاور الذي كان من لحظات يجلس في حضنه وليسمع منه كل بقية للحكايات:

- تعال! تعال يا أخي، وسع صدرك. اجلس معاي بأعزمك على لحفلة خاصة تستمع فيها على خلقة عيال آدم هذي اللي تفطس من الضحك ..

وأكيد انك رايح تنبسط وتنسى كل الأحزان ..

لكن زعنون يتملص من يد فرخعون خوفا أو تقززا من الجلوس أو مجرد الاقتراب من الرجل الإنسي وكان رجلا متدينا صارم الملامح وبلحية طويلة:

– أعوذ بالله من ذا الإنسي، هجوا!ذا يخوف، شل ركبي! تعال انت يا اخي نشوف لنا محل ثاني ..

وجذب فرخعون للبحث عن مكان آخر، وبينما هما سائران بين جماعات الجالسين أغتنم فرخعون الفرصة ليبدأ بصديقه جولة سياحية يعرفه بمظاهر الموقع وظواهره الجديدة وبالأخص معلوماته عن زبائن القهوة من الإنس:

– ياه!! شوف! طالع! طالع هذا اللي خشمه مثل جحور النمل! هههها .

فيشعر زعنون برغبة في نفسه للضحك ويتحمس للدخول والاستمتاع بهذه اللعبة وحينها سمع فرخعون:

– والا شوف الثاني! فاتح فمه وأسنانه بيضاء! ومع شدة بياض أسنانه متلاصقة تمام وتلمع كأنها...

ويتفاعل زعنون ضاحكا مع المشهد وما رافقه من الكلام:

– تصدق! هذا مثل السمكة الهبلاء اللي شفتها اليوم وانا في طريقي في المحيط الهندي! صدقني زي سمكة شفتها قاعدة تنازع وكانت

فاتحة فمها مثله بالتمام هههها. كان صف أسنانها أبيض متصل زي هذا الكاشر بالتركيبة الرخام اللي لابسها! هههها ..

وليزيد من اندماج صديقه وسعادته أضاف فرخعون:

– وشوف الثاني! لسانه أحمر وخده أحمر منه! هههي يذكرني بحاجة في القرود! هممم نسيتها! هههي.

وينخرطان في الضحك سويا على ذلك حتى ألتفت زعنون خلفه فشاهد رجلا مسنا يدخل القهوة ويسير في صعوبة وببطء بينما يتوكأ على عصاه، فأنطلق زعنون يسير خلفه ويقلده مستهزئا ثم يعود إلى صديقه معلقا:

– شفتني مع ذك الكحيان! تراه آدمي بس منتهي الصلاحية! هههها محتحت! لا شعر ولا أسنان! ولا فيه حتى أي شيء شغال ومن كل الأشياء الضرورية للرجال واللي ما أكثر منها وماشي على "استبنه" خشب؟ وفرحان؟ هههها.

فيتساءل فرخعون بخبث:

– كذا لازم يعلق استبنه ثانية للاستبنة الخشب! وتكون احتياط! لكن! بس فين يركبها يا أخويا زعنون؟

أعجب زعنون بخبث السؤال فسارع معلقا بعد أن فكر بأكثر من إجابة أخبث:

– أكيد رايح يحطها شدّ سفاري، على ظهره! ومع إنها بتلزقه بالأرض! هههها

ويضحكان بعد أن شدا على كفي بعضهما بالإعجاب والتأييد ويستمران بإفراغ دفعات جديدة من الضحك والتندر على بقية الرجال من بني الإنسان، فيعلق زعنون:

– يا اخي! وفرحانين بخلقتهم هذي؟ صحيح انهم مخابيل! تصدق! إن بعضهم يقعدون بالساعات مقابلين المرايات ويطالعون في خلقتهم البشعة؟ ما تدري في ايش يتغزلوا؟

ويتظاهر فرخعون بالتفكير والتعجب، ثم أضاف وهو يتكتم الضحك:

– عاد تبغي الصراحة! أنا متهول منهم جدا، جدا! بس معجب بشجاعتهم الخرافية هذي، يا اخي! ماني مصدق كيف يمشون في الشوارع وعليهم نفس الوجيه هذي ولا يخافون من بعض؟ هههههي.

ويضيف زعنون ضاحكا:

– والمعجزة يمشون فيها بالليل وفي الظلماء؟ هههههها.

ويتساءل فرخعون مظهرا تعجبه والدهشة مما يسمع:

– في الظلماء؟ في ظلماء و .. يطلعون بعض و .. يشوفون بعض؟ ولا ينخرعون؟! هههههي.

وفي تهكم أستمر زعنون بالإضافة على المشهد بما يشبه أسلوب البوح بسر خطير:

– والمصيبة أنهم ينامون فيها بالليل! هههههها.

وليؤكد فرخعون تفجر مشاعره بالرعب علق مظهرا هول الأمر مع التصنع بالذهول:

– ايش؟ يا لطف الخالق؟ هذا رهيب!

وأكمل في سخرية:

– عاد تصدق؟؟ أنا محرّم من قرون المشي بالليل في الشوارع الظلماء هذي وخاصة إذا فيها أي انس يمشون فيها! هههههي يا شيخ أخاف يخبلون بي، وأنهبل!

وهنا ينفجر زعنون بالضحك من تعليق صديقه:

– ويا ويلك! تصير هذي عليك أقوى فضيحة في عالم الجن! إن اللي هبل فيك انسي! يا فضيحتاه! هههههها.

يأخذ زعنون بالشد على بطنه بيده بقوة تألما من شدة الضحك وهو يستمر بالتعليق على هذا الحدث ويكمل:

– يا ويلتاه! ويا ويحك، يا فرخعون! يا ولد سحيتاته العظيمة عاد ترى ما عندنا أحد في الحارة ولا في الديرة ولا في القارات ولا كل الكون من يقرأ عليك ويعالجك من خرعة الإنسي! هههههها واكيد بيجون جماعتنا الجان يسألون عن مرضك ؟ ويقولون أهلك: هبل فيه انسي! هههههاي.

ويكمل ضاحكا:

– وترى جني الإنس نشبه! والله صعب! ما عاد يطلع منك! مثل الصهيوني إذا لزق بأرض! وهذا الإنسي مثلهم، ما تطلعه منك جيوش من مشايخ الجن! مثل ما عجزوا ذولاك كل مشايخ العرب! هههههها

وبصوت متعاطف قال الفرخعون وهو يتظاهر بالإشفاق:

– بس تراهم معذورين! هم ما يعرفون حقيقة إنهم أكثر بشاعة وانهم شينين! وهذا بسبب جهلهم بمقاييس الجمال الحقيقية والطبيعية في الكون!

ويصادق فرخعون على نفسه بما قاله سابقا ويضيف في رثاء ساخر بالبشر:

– وأنا فعلا صادق! فهم مساكين! ما عمرهم شافوا أي جمال حقيقي!

وليؤكد زعنون مشاركة فرخعون في هذا الرأي الهام راح يضحك بشدة لسبب ما حتى وقع على الأرض ثم نهض ليقول:

– أيوه! صح، صح، تراك صادق! نعم، صادق! والدليل اني طلعت أنا مرة على واحد انسي! ولد جار لناوكان بالنهار! وأنهبل؟

وراح يتعمق مفكرا وهو يكمل وكأنه توصل لاكتشاف سر غامض:

– ويا اخي، ومن مدة ما كنت أدري ليش؟ وهم الله يقطعهم ورطوني فيها! كانوا يحسبون إني بخيت فيه وخرعته!

واكتشفت اليوم انه هو أنهبل من المفاجأة بروعة جمالي!

غبي، ويستاهل! لليوم بلشانين فيه البشع. هههههها.

ثم أكمل مع هستيريا ضحك متصلة:

– ولو دريت! ما طلعت عليه المسكين! أثاريه ضعيف قلب! وكان طلعت عليه بالتقسيط، وعلى خمس سنوات وبشرط مع إحضار كفيل! هههههها.

أفرح فرخعون ما سمعه من الدعم في هذه النقطة بالذات وكانت تجد عدم قناعة فيما مضى من صديقه زعنون ورفع رأسه بإعجاب وبكل فخر وغرور:

– يا اخي، شوف حلاوة خلقتنا معشر الأبالسة والجن! شوف شعرنا الأحمر الناري! المثير! كأنه ألسنة اللهب! وحواجبنا! البارزة والمسننة، بتدرج في جمال عكرة الضب!

وأقترب من زعنون موجها اليه كلاما جعله يحلق كالنسور ويوقد فيه شحنات مراهقته المبكرة فهو مازال صغيرا ولم يتجاوز السبعة آلاف عام

– وحتى انت يا زعنوني! تراك انت حلو! خطير! يا عليك جمال! في خطوطك السوداء مع البقع البنية الداكنة وتزاوجهما مع اللونين البيج الزهري والبرتقالي! قمة البهاء! أما فيك جمال تراك صعب!

كان فرخعون يصف وسامة وجمال صديقه وهو يستدير حوله وان كان رعنون متفاجئا بمن يتغزل به وبجماله لأول مرة:

– انت تحفة جميلة ومتناسقة وكأنك .. لوحة سريالية مستوحاة من دمج أجمل ألوان الأصداف لأندر السلاحف البرية في بلاد الهند وهي جاثمة تحلم بين أكداس أوراق الأشجار المتساقطة في فصل الخريف وبينما هي تحترق مع ما حولها تحت وهج شمس الظهيرة، فوق رمال ذهبية ملتهبة ..

لكأن في أجوائهم الشاعرية هذه تموج حولهم موسيقى وخطوات الفالس برقصات رومانسية يصنعها ويتفاعل بها خيال زعنون فأخذ بدور بنشوة متغزلا أيضا بوسامة صديقه فرخعون متغنيا بتفاصيل جماله الباهرة:

– وشوف انت يا صديقي.. جمال وجهك انت! يا فرخعوني! هذا الجمال الملكي العريق السمات! في لون وجهك الأزرق الداكن، وكيف هذا اللون الجميل يتناسب فنيا مع التألق لحمرة الأحداق في عينيك! وكأنهما فوهتي بركانين، تتأججان في عمق زرقة المحيط الهادي ...

ويضيف فرخعون على ذلك من فيض غروره وتفاخره وهو يستمتع بالنظر إلى أنامله:

– شوف! أظافرنا الطويلة القوية هذي وبألوانها البراقة! وإلا أنيابنا البارزة من بين الشفاه المبتسمة دائما حتى بدون أي رغبة للابتسام، فتظل كاشرة، تحمل أجمل ابتسامة. ليهتف الفرخعون فجأة لتذكره أمر خلاف فكري سابق حدث بينهما ثم انشغلا عن إكمال المناقشة حوله، وربما كان حول نظرية خاصة في أمور الحياة ويتبناها الفرخعون:

– أيوه، جبتها! أنت كنت تزعل مني إذا قلت لك إن النساء، وأقصد حريم البشر هن أذكي من رجالهم، صح؟ يللاه! فكّر معاي! شوف اليوم نسوان البشر بيعملوا ايه؟

ثم حام في دورة سريعة حول نفسه وبوقفة منتصر قال:

– هن، وهن، أنظر! هن من لديهن النظرة الصحيحة في فهم الجمال وفي كل أبعاده! لأنهن من قلد طول أظافرنا! مع تطبيقهن لكل الأشكال والألوان المستوحاة من تفاصيل ومكونات أجسادنا ووجوهنا وعيوننا الملونة الأحداق وما حولها من الرموش والأجفان اللامعة! والبريق الذهبي على الأوجان وعلى معظم الوجه!

وبابتسامة مع نظرة تمتلئ باللؤم أضاف:

– وان كان الظن بأنهم من أبتكر كل هذا! هههههي.

وفتح ما بين رجليه ورفع صدره ورأسه واضعا ذراعه خلف ظهره وفي غاية الفخر والبهجة أضاف:

– هن ! هن ! من قلدنا في كل شيء! حتى في أشكال شعرنا الثائر والمتنافر والمنكوش والوضع المنفوش والبشرة المليئة بالنقوش وأيضا الوشم والرسوم في الوجه والأذرع وكما في أماكن بصراحه عيب أقولها .. هههههي.

وأضاف بعد عاصفة الضحك باستهزاء:

– وما يضاف لكل ذلك من دعم قرني وبلاستيكي ومساميري وحلقي وسلاسل، واستعملوا كل الألوان، حتى الفاقعة اللي تزين حريمنا!

وكأنه على منصة خطابة:

– وخرجوا للشوارع باللي يسموها تسريحات مبتكره، قالوا ايش؟ هذا ايش؟ نيو لوك! هههههي طبعا هذا بعض أهم مميزات جمالنا وحلاوتنا وهو خلق فينا، وطبيعي في نسواننا وبناتنا الرائعات!

كأن الفرخعون يريد تثبيت كسبه للرهان السابق الذي كان يرفضه زعنون ولذا وجه عبارته مباشرة اليه في تفاخر:

– ولكن ألواننا وأشكالنا طبيعية يا حبيبي! أما هي في نسوان البشر تايواني، شغل بنغله، مزيف! كلها أصباغ! ألوان جميلة وفاقعة ولامعة وكلها مزيفة كمان، يا حبوب!

وينفرد الفرخعون بالضحك وحيدا ويقهقه عاليا ومع هذا يكمل حديثه دون أن يتمكن من قهر غلبة الضحك:

– وعندك الترهيم، والترميم! هههههي وبكل أنواع الملحقات والملصقات والترقيع، بالإكسسوار ولزق الدعامات الخارجية والداخلية مع المعززات

هههه للواجهات الأمامية والخلفيات، وهذي كلها طبعا مصنعة حتى لو قالوا منتجات فرنسية والا أميركية.. الله وكيلك كله شغل تايوان!

فالمهم.... !

توقف لحظة ثم فرقع بأصابعه عاليا وأظهر صوتا رقيقا وحنونا:

– مسكينات! يبغون يصيرون حلوات، جميلات! ومثلنا احنا! وان كانوا فعلا مقلدات وبائسات مقززات فالأهم يقلدوننا!

ورفع يده كالشاعر أو من سيلقي خطابا:

– هن مقلدات لنا! في كل الألوان والأشكال، تماما، في هيئتنا الكاملة وبجميع التفاصيل وبكل الطرق.

حتى في أساليب لبسنا ونوعيات ملابسنا القصيرة والطويلة والشفافة والمسرولات وبالفتحات الواسعة والعارية من كل جانب، وبلصق أنواع الذيول.. مثلنا مثل.. هههههي.

وكان يدور ويضحك وهو يمسك ويتلاعب برفع ذيله وتوقف فجأة ليضيف سخرية جديدة وهو يكاد يسقط من الضحك:

– أظنك سمعت بالنيولوك؟ النيوو لووووك يا متخلف! هو كل اللي فات مما قلت من اللصق في كل أنحاء الجسم ومن فوق وتحت الجلد والملابس،

ومنها كل ما يثبت بالدبابيس والقضبان والمواسير، بمفلطحات ومدببات وتروس مصفحة فوق بعض الأجزاء المحددة! هههههي.

وبعد استراحة من الضحك الساخر:

– طبعا يغطون ويبرزون فيها أجزاء من أجسامهن وكلها شغل تايوان، وربك تايوان! كله بلاستك ومعادن رخيصة ولو ان بعضها ثمين فالهدف! انهم يصيرون نسخة مطابقة عن نسواناوعننا.، تلقاهم مع كل شكل لنا يتفاخرون:

أوه! هـذي "نيو لوك" ويقولوا موضة أو تقاليع والمحزن انهم يعتقدون انهم هم مجددين واخترعوها .. هههههي.

هو يقول ذلك بينما يغمز بأحد عينيه معبرا عن الذكاء والحكمة ومفتخرا :

– بس لا تسأل كيف عرفوا هذي الأشياء؟ أو كيف وصلتهم، يا حبيبي؟

لأجل أنا.. أبو صنعر! الفرخعون الخارق!

وكأن زعنون كان أقتنع ربما من ذكاء نساء البشر وبدأ يتراجع عن أفكاره القديمة قليلا، فخرج من صمته الطويل بهذا الاستنتاج:

– تدري وبصراحة! انت على حقَ! لكن نسوانهم معذورات! وأنا حاس انه ابهرهن جمالنا وروعة نسوانا وهن محرومات من هذا! مسكينات! العوذة منهن ومن كل انسي ..

وأضاف بينما يحوم ليؤكد قناعاته:

– يا حرام! حتى ما لقوا شيء من هذا الجمال في رجالهن مثلنا! هههههه اش يسوون غير كذا! يبغون حنان يا بو الحنفش صنعر! هههههها

وبغرابة يروح زعنون بخطوات زاحفة والخبث يتراقص في عمق عينيه وعلى حاجبيه فيسأل صديقه فرخعون عما كان يرتب له منذ وقت مع استمرار الحوارات الطويلة:

– تعتقد يا صاحبي إن بعض النسوان الانسوانية قدر يتجسس علينا ويطلع على أدق تفاصيل حياتنا وسرق كل هذه الأفكار! طيب! كيف وصلوا لنا ؟ أو وصلوا لها ؟ حتى كشفوها وطبقوها؟ هاه ؟

يتساءل وهو يرصد عيني وملامح الفرخعون:

– يا أبو الحنفش صنعر، يا الخطير؟ أنا مؤمن بحق! بأنه ما عندهن هذي القدرات ولا الإمكانات للوصول لنا! أو لأي معلومة عنا إلا إذا! كنا احنا! واحنا البارعين من شياطين الجن ! واحنا الأبالسة! يمكن لنا يد وراء كل هذا، .وأنا يقيني بأنه أنت! وانت الوحيد اللي وراء كل شيء حصل ويحصل

ويمكن في كل عالم الانس والجن!

ويلتف بسرعة خلف فرخعون ليهمس في لؤم ونظراته وأحداقه تتقلص وتتمدد في عينيه:

– وأنا سبق وخمنت انه انت من كان أدخل في رؤوسهن كل هذي الأفكار وأوصل للإنس كل نوعيات وميزات جمالنا ! وهم طبعا انساقوا وساقوا فيها، وانت الأعرف بهن وبحريق الغيرة المعروفة عنهن عرفت كيف تستثمرها وتستغل حبهن وافتتانهن بالمظاهر وبالجمال والحلي، وانت... !

وبابتسامة خبيثة وهو يشير بإصبع نحو الفرخعون:

– انت ! ومين غيرك طبعا يخدم الجمال والجميلات! يا فرخعون! يا أمير الجمال! يا أمير الشياطين والعفاريت!

هنا يهتف فرخعون بافتخار ويعطي لنفسه الأمان لظهور اكتشافات زعنون وصحة اعتقاداته وكان يتحفظ عليها:

– الصراحة! هو مثل ما قلت، وهو أنا! وما في هذا ذرة شك! لأجل ما فيه أحد غيري قادر على تغيير نساء العالم والتأثير في نسيج البشر!

ونفر مبتعدا ورفع ذراعه وهو يشير بإصبعه لتنبيه زعنون:

– لكن وبكل الصراحة وللأمانة التاريخية والثقافية لعالم الجن من أبالسة وشياطين لابد من الاعتراف بإن معظم ا لفضل اللي صلوه من ازدهار ونعيم يرجع لي أنا ولإخلاص بناتي المطيعات من بنات الإنسان!

وأخذ يتحرك ذهابا وإيابا وعلى وجهه ابتسامة مشرقة وتحمل بينها تركيبات من الغيظ والحقد وبالإعجاب:

– كان هناك دور قيادي! كأول أتباعي منهن وهن أول من يطبق مشاريعي، ثم يتبعهن صديقاتهن المخلصات بالتبعية! ثم أترك الباقي لبقية الغبيات والأغبياء... فهن من يفرض هذا على كل الرجال من حولهن ..

وتتحول الى مقاييس عالمية مطلوبة للجمال الحديث

والجميلات ولابد أن يعجبهم، وبالغصب عن أبوهم

يشتروه لهم ولابد كمان يحبوه والا ! يتشردوا هههههههه

وبنظرة وابتسامة ساخرة:

– وانت تعرف أسلحتهن يا حبيبي!

ثم وهو يرقص براسه وبتفاخر:

– لأنه يا حبوب، جمالنا الشيطاني جمال حقيقي رائع

وفاتن وآسر لكل نساء بني الإنسان، ولو كره العاقلون!

ويستدير بابتهاج النصر:

– أنظر للجمال في واسع أحداقنا الملونة!

وعملوا مثلها تايواني ومن العدسات! وشوف شفايف نسواننا الضخمة والغليظة! عملوها من المعجونات والسيليكون!

والا شوف بهرجة وبريق الألوان وهي على طبيعية على وجوهنا وأجسامنا وحراشفنا!

ويأخذ باستعراض ذراعيه وأنحاء جسمه بإعجاب:

- وكلها! شوف! مزيج من ألوان الذهب والفضة

والنحاس وألوان كل الأحجار الكريمة تتناغم في

الضوء والظلال

مع تداخل ألوان النار والفحم والرماد ..

ثم يدور بعنف في غطرسة:

- أنا اللي خليتهم يقلدون كل شيء في عالم الأبالسة

ليثبتن لهم حقيقة تفوقنا على بني الطين في كل شيء!

وفي مقدمتها الحسن والجمال!

وخلينا نسوانهم يفرضوا كل شيء على الأزواج،

حتى وان كان في جمال مزيف أو منقول أو مقلد عن

جمالنا الشيطاني الحقيقي الطبيعي .. هههههي

وفرقع فرخعون بأصابعه ليثير انتباه زعنون لما سيقوله ثم أخذ يصفق بيديه كاحتفال وتشريف:

- ولعلمك! هذه العملية هي البدايات! وعلى فكرة

الموسم القادم رايح انزل فيهم أخطر موضة

ومستوحاة من جمالنا!

وبالمصري ح أكسر فيها الدنيا! وما فيه مانع تسمع المفاجأة

وحتى تتذكرها: هي في توسيع المناخر والفلطحة!

ولا تسخر منها! لأنهم كلهم سخروا من كل اللي فات في البدايات. هههههي وبفرقعة جديدة بإصبعين من كفه وهو يرفعها للأعلى لترتفع بما يعني النصر والعلا:

- بس! هي جراحة بسيطة وزي وخزة الدبوس وتكون قنبلة وتقليعة العصر في عالم الجمال الإنسي!

وأكمل بنفس الفورة:

- أنا لازم أعرف هؤلاء البشعين! الوحشين قيمتهم! وأعرفهم وضعهم ايش؟

وهم ايش من بين كل الخلق! وتصدق؟ انهم يضحكوا على القنفذ؟ القنفذ؟ أيقونة الجمال في الكون؟ وهو حبوب وأحلى منهم!

يشعر فرخعون الآن بالعجب المتناهي وبفضله على بني الأبالسة والشياطين بكسبه معارك مهمة ضد بني آدم وجعل معرفتهم لمقاييس جمال الأبالسة الباهرة وإلباسها نسوانهم ورجالهم وتكون مداخل سهلة في انتشار الفساد بتغيير طبيعتهم الصالحة كما هو حلم ملكهم المخلد!

وبالفعل أختار الهدف المناسب لتمرير جميع الشرور الشيطانية في جميع البشر بجعل هؤلاء النسوة خير ناقل لها.

هو أستغل أخطر خصائص حواء حين أغواها وأغراها ليكتشفن ما يوهمها به، وبأنهن حرمن في كل القرون السابقة من الاستمتاع بالحياة وبجمالهن ويضطهدن دوما من الرجال على مر العصور!

وبهذا يكون للفرخعون الأفضلية والفضل عليهن أولا والحب له وللأبالسة والشياطين، ويكون ذلك موصولا أيضا لجميع رجال بني الإنسان بحصولهم على وسائل لحقيقة المتعة والاستمتاع في حياتهم بما يتحصلون عليه، ولهذا قال الفرخعون في استعلاء:

- طبعا، ذول الناس لازم يشوفوا فينا حقيقة الجمال

والتألق ونكون قادتهم للحصول على أزهى وأبهى

وأسرع طرق السعادة وبعدها نعرفهم بما نحمل معها

من القوة والهيبة وأن عليهم الخضوع، لسلطان أبانا العظيم ملك عالم

الجن من الأبالسة والشياطين!

ثم وفي السخرية الموروثة عن أبوه إبليس الكبير على بني أدم وخلق الله له تابع:

- تصدق! أنا كنت ألوم أبونا إبليس على رفضه السجود لآدم ولكن بعد معرفتي لسر هذا الرفض أيدته وآمنت بكل ما فعل!

وفي تمادي إبليس بالاستهزاء يكمل ابنه الفرخعون:

- لأنه ما هو معقول؟ أبونا ذاك الطاووس الرائع! وملك الجمال، الحلو، والوردة المفتحة بين كل ملائكة السماء يسجد لآدم التراب أو بني آدم البشعين؟ بصراحة! اللي أشوفه اليوم انه ما هم خلقة أحد يسجد لها؟ لكن الله أبتلانا فيهم، والمصيبة! لازم نستمر نشوف خلقتهم ليوم القيامة ، قهر !

هنا يسارع فرخعون لملء هذه النقطة، وهي الأهم والتي يريد أن يحتوي بها صديقه زعنون وضمه لمخططه الإبليسي –الثوري الجديد– ويعلم بأنه أصعب

عقلية في كل عالم الجن والشياطين ونجاحه يعتمد على التمكن من الوصول لإقناعه والحصول على تأييده:

- يا اخي! عندي سؤال هام، كيف تتصور مقدرتنا بعد

يوم القيامة على كيفية التعايش مع بني آدم من الانس ولو ليوم واحد في الجنة؟ سألتك حتى تعرف ليه أبونا إبليس أختار العصيان؟

فهدفه كان حتى لا يلقى نفسه مع آدم وعياله البشعين

في الجنة ولأبد الآبدين! يـاه هههههي.

ويغرقان في ضحكات متشنجة ويتعانقان كثيرا ابتهاجا بما دار وعلى ما توصلا اليه حتى ظن فرخعون بأن صديقه زعنون ذلك المفكر المحزون وملك اليأس والبؤس والملل قد شفي تماما من أمراضه تماما بعد أن عاش لحظات طويلة في سعادة وبعيدا عن الكآبة وأستأنس بالحوار والتعليقات وفي الشماتة ببني الانس وبالجالسين منهم في القهوة، وأنه فعلا نسي جميع أحزانه وتخلص من الهموم وتفاجأ بهذا الزعنون يتحول فجأة وتنتابه حالات جديدة من الاكتئاب وتبدلت فورا ألون سحنته لتظهر عليه علامات عميقة من الحزن ثم تظهر عليه أعراض الحس باليأس والنحس وبدايات السيطرة لنوبات التذمر ليزحف منها للشكوى من تعاسته المزمنة بتخيلاته المملة التي ستقتل بالهموم كل سعادة في حياة رفيقه فرخعون:

- بس يا أخي يا فرخعون! أخوك مازال حزين!

واللي يحزنني أكثر أني وبمرور آلاف السنين

وأخوك ما أتلقى ولو مرة واحدة وعبر الست آلاف وتسعمئة

وتسعة وتسعين سنة اللي مرت من عمري أي لعنه حقيقية وخاصة بي من أي واحد من بني آدم الطفسين!

نفجرت دموع أحزانه وخلالها:

- تصدق! ولا حتى من طفل صغير؟

ما جاتني لعنة حقيرة من أي بزر صغير؟

آه ثم آه! يا ضياع عمرك يا زعنون البائس!

ويتابع متشكيا حتى أنتهى إلى البكاء المريع، لأن هذا من الأسرار الحبيسة والمتكتم عليها وهي السبب الحقيقي لمعظم معاناته وكآبته ومعايشته الطويلة للأحزان:

- صدقني، حتى لما سافرت أمس وكانت سفرتي ليوم

عفاريتي واحد وانت عارف انه أبو مئة سنة انسي،

وكان كل اللي جمعته فيها ثلاث عفش لعنة وثلاث

تفلات، وبس؟ آه يا قهري!

صعق فرخعون من هذا الخبر الغريب والمعلومة المرعبة عن معاناة صديقه الفظيعة وتولته الدهشة تلاها التألم العميق ليواسيه قائلا:

- سفرة وثلاث عفش لعنه بس؟ وما حصلتها إلا في

سفر ومرمطة بين بلدان الأجانب وبطول مية لسنة انسي؟؟

يهز زعنون رأسه بأسى ويكمل بغصة لما آلت إليه حاله من السوء:

- يا شيخ! حتى ما أخذت هذي إلا بالملعنة! ونصفها بالشحاتة!

و في مكان واحد، لما وصلت الى جدّة وبالصدفة!

وحصلت لي في لحظة أول وصولي وانا راجع من

رحلتي! وكنت ممتلئ حزن وطفران لعنات وآخر طفش ...

ألجمه الخجل والحزن ولكن فرخعون سارع يشجعه بالتساؤل وبالدعوات وان كان يخفي في الحقيقة الشماتة:

- لا يا صديقي، لا تسكت! فضفض وقول لي كيف

حصلت؟ فضحك الله وأغدق عليك وابل اللعنات، انت

فعلا مسكين مستحق الشفقة !

يبتسم زعنون وان ما زالت على وجهه مسحة الحزن لحقارة هذه الدعوات لأنه يعلم بأنها مردودة وغير مجدية، فمن طلب صرفها له هو صديقه الذي لا تقبل له أي دعوة أبدا، وأكمل من غمه:

- المهم! شفت على الكورنيش واحد وزوجته جالسين يسبحون في بحر الحنان، يعني قاعدين يطرطشوا بالعواطف، وقعدت أتفرج عليهم وفكرت أوهق الزوج بلعبة! فوسوست له أن يحدق ويغمز ويأشر لوحده جالسة قريب منهم هههههي

وليظهر براعته الشيطانية:

- وفي نفس اللحظة خنست للزوجة بوجود خيانة من ورائها وتنبهت للتحركات! وتصور! كيف قامت زوجته الهبلاء ومردغته علانية على الشط، وكيف سف الكثير من الرمال على الكورنيش،

حتى صار يبكي ويعتذر لها وأخيرا حصلت منهم على كم لعنة مباشرة .

وفرك كفيه بحسرة:

- ولا أكرموني وكثروا البخلاء! بس أكلتها بسرعة ومشيت! وبصراحة فرحت لأجلها أول نعمة!

أما قبل هذي عشت ودرت العالم كله والكون بالطول

والعرض! ولا حصلت فيها على تفله وحدة!

آه يا قهري من نحسي!

يبدو أن هذه الحكاية أحزنت فرخعون فعلا وأشعرته بالمزيد من التعجب وبالرثاء لحال رفيقه والتي تسره كصديق سيستعين به في تحقيق أهدافه:

- يا لطيف ألطف يا أبو سنسح! أقسم إن حالتك أصعب

من أي صعب يا خويّي، وانت فعلا في أعظم مصيبة!

لو إني سمعتك تقول قبل ما تسافر إن رصيدك من

اللعنات ما يضمن لك ولا "عشة " في جهنم،

وظنيتها مزاح، وجيت اليوم من سفرتك هذي ويد ورى ويد قدام! عسى الرب يكرمك بخيمة على شواطئ ويل.. يا حبيبي ..

بنبرات المتجرع للمرار ولكنها تخرج من باطن جوف ممتلئ باللؤم والشماتة يعلق الأمير الفرخعون مستهزئا بزعنون:

- يا للأسف! هذا وانت ولد شيوخ معروفين!

وتختمها في صندقة والا في عشة في جهنم العظيمة!

والحق! ما ندري؟ هههههه تقبلك هذي النهاية والا بعد ترفسك ..

ولكن غرور الفرخعون أبى إلا أن يظهر نفسه في مثل هذه الفرصة ليعتدل في أبلغ مشاهد الغطرسة وبكل الزهو متباهيا وهو يقول:

– أما أنا يا حبيبي فمبسوط تمام! وأنا البارحة بس نمت أحلاها نومه، لأني ما قدرت أكمل حساباتي لأرصدتي وخزائني بعد ما وصلت لمقدار تروخ

عفش سطم طسملیارین وتروخ وسق زمعلون لعنة مباشرة، مع مبلغ يساوي طسملیارین صطم ترخ ووسق عفش زمعلون من اللعنات العادية، ومعاها

صطم عفش طسملیارین ووسق عفش زمعلون لعنة ابليسية بس من النوع الفاخر!

وبإشارات من كفه وأصابعه بترفع عن المقادير وأهمية قيمتها:

– ومعها كمان زمعلون ترخ طسملیارین ووسق عفش

ترخ طسملیارین وتروخ عفش صطم زمعلون لعنة

شيطانية، وأيضا هذي من نوع فاخر!

ويواصل فرخعون تبجحه وغطرسته ولاستفزاز زعنون:

– هذا غير أضعاف منها تحت البلاطة وهي تزيد

بحوالي صطم تروخ طسملیارین مرة معاها ممتلكات

تساوى ضعف هذا الرقم وبزيادة سطم تروخ وسق

زمعلون لعنة عفاريتي مميزة!

ويستمر في إكمال التباهي الوقح:

- **وعندي استثمارات بحوالي صطم عفش وسق طسملياربن وبضعف زمعلون من أسهم اللعنات الصافية وكلها لها مداخيل بأرباح متضاعفة كل قرن بنسب ربح ترخ عفش ترخ زمعلياربن بس تحول هذه الى لعنات إمبراطورية! يستحيل تملكها**

ثم يروح بعيدا في تفاخره وبتنطع:

- **أوه! وعندي الكثير من الأسهم النارية في صندوق شركة "يلعن أبو إبليس الوطنية" وفي شركة "يلعن أبو جد العفاريت المتحدة"!**

وهذا القليل من بعض اللي أتذكره فقط! وباختصار أنا أمتلك رصيد من اللعنات لا يحصى أبدا!

فيقطع عليه زعنون سيل العجرفة الفرخعونية بغيظ وسخط وهو يطلق نبرات مترعة بالحسد تزحف من حنجرته وهي مثقلة بالحقد:

- عندي الخبر فيك، وأخبار أرصدتك اللي يمكن

صارت أكبر وأكثر من رصيد أبوك إبليس

الإمبراطور الأكبر نفسه، لأن

رصيدك الآن أصبح أكبر من أرصدة كل شعب

الأبالسة والشياطين اللي جمعوها من أول يوم فرض

فيه الحج في التاريخ ..

ومعها كل ما جمعوه من أول يوم فرض فيه الصوم،

مضروبة تروخ عفش صطم طسمليارين سنة كبيسة إبليسي و ..

لكن فرخعون يسرع بمهاجمة زعنون بالعتاب وبعاصفة من التأنيب وليقطع عليه أيضا الاستمتاع بمعزوفته من الألحان الحاقدة:

- وأنا كم نصحتك يا اخي! وقلت لك: بلاش أوروبا

وأفريقيا وعليك بالعالم العربي! هم المستقبل لكل

شيطان وعفريت مبتدئ، !

والعرب يا ولدي! هم اللي فيهم مستقبل لكل صغار

وشباب الخلق حتى الأبالسة الكبار عندهم أكبر

أسواق الشر الواعدة ولأصغر جني ..

ثم تنطع وكأنه يمزمز ويمص شفتيه على طبق بقلاوة وبصوت قوي مميز:

- هنا عالم فيه كل اللي تتمناه، من الشرور والمعاصي

اللي تغنيك عن كل ذنوب الغرب والخواجات التافهة!

هنا تلقى أقوى أنواع الجريمة والدمويات وأشد المعاصي...

يزداد الغضب ويؤجج ثورة الفرخعون الذي راح يعنف زعنون بقسوة:

- يا غبي! في كل الجهات الأربع ما رايح تلقى فيها

من يلعنك أبدا! الكل هناك يحبون الأبالسة

والشياطين لدرجة العبادة!

ولا ريح تكسب منهم لعنة واحدة! بالعكس الكل

يمجدك! فمن رايح يلعنك أو يتف عليك هناك؟

مخك مخ قنبري... !

تابع وهو يصفق بيديه حسرة:

- كان في اليومين اللي ضيعتها هناك صرت هنا أشهر

طسمليارينى أو صرت زمعلونير على الأقل في عالم الشياطين

ليخرج أخيرا صوت زعنون مهزوزا، ممتلئا بالحزن وبعواطف جياشة من الحسد والحنق المصحوبة بالغيظ من صديقه فرخعون:

– أ تريق عليه! خذ بعقلي! أنا عمري اليوم سبعة

قرون، يعني طسم عفش زمعلون سنة وما جمعت

فيها غير ثلاث بصقات؟ طبعا ايش يهمك يا أمير!

ايش يهمك يا فرخعون! يا أمير، يا ولد الملك!

ليتفجر حقد زعنون وفرخعون يسد أذنيه أو يرتل طلاسم ومعوذات لطرد العين والحسد:

– أستمتع يا أخويا بثروات لعناتك في الجحيم! وبلبط

في أنهار النار، ما انت خلاص! ضمنت لك أحلى

آخرة في جهنم، وكلها عز وفخفخة!

وأستمر في عزف مواويل حسده وحنقه:

– هذا غير أبوك الإمبراطور إبليس الكبير اللي رايح يورثك واحد من أكبر قصوره في جهنم!

ويعطيك الأحلى شاليه في منتجعات وادي ويل!

أنت رايح تتمتع يا ملعون فعلا بكل النار والحريق

هنا قهقه فرخعون بفخر، وأضاف:

- لو إني ما أعرف إن عيوننا ما تشتغل إلا على جنس

البني آدم كان خفت منك ومن عيونك بحق، ولا

أتجرأت أقول لك عن أسرار أملاكي! يا حسود!

ثم يقترب من زعنون في سعادة أنه تمكن من أثارة غيرة قاتلة في أعماقه وراح يحضنه ويربت عليه للتخفيف عنه قليلا ليشعل فيه نيران الحقد من جديد:

- لكن بيني وبينك: جاني من كم يوم خطاب شكر مع

القلادة العظمى " نيشان الحريق"، من الدرجة

الإمبراطورية ومعها حساب مفتوح في "سقر"! هههههي

وباحتقار ساخرا :

- وانت يا شحات أكيد ما تعرف معنى حساب،

ومفتوح! وفي "سقر" ! عاد وما إدراك ما سقر؟ يا حبيبي!

يعني عزّ! نغنغة! هههههي

أختنق زعنون بالغصة وأقصى مشاعر القهر الممتلئ بالحنق وعظيم النقمة وحاول أن يخلق منها ابتسامة مرحة ولكنها أبت إلا أن تخرج بغيضة وبشعة أيضا وهو يقول:

- حلاوتك! يا ليتني فعلا أقدر أحسدك يا أخويا،

لكن! مثلك عارف!

ولم يجد وسيلة سوى أن يتسول ويتوسل للفرخعون:

- بس تكفا، تكفا! لا تنسى أخوك بكم خيشة جمر

حراق! وإلا أقول لك:

أتبناني، أتبناني يا أخي تكسب مني عظيم اللعنات!

وإلا أقول لك علمني بعض مهاراتك في جذب

وجلب لعنات البني آدم عليك! وإلا أي سر

صغير من أسرار التنمية للعنات! تكفا، تكفا!

ويروح يطارده والقفز خلفه بالتوسلات قبل أن يتوقف محبطا وممتلئا بالحزن وليعود منكسرا إلى أجواء التعاسة والكآبة ويغوص في عمق أحزانه:

- يا اخويا ما أدرى ليه كل الأبالسة والشياطين وحتى

البني آدم صاروا مستحقريني طول السنين وأشد

بخلا معي، كلهم عليَ طفسين وأنقطية، وبجد!

ثم يتكئ على كتف الرجل المتدين الملتحي دون أن يشعر ويستمر في أشجانه وحين يتنبه لهذا يركض مبتعدا في رعب وأكمل وهو ينظر نحوه بغضب:

- صار الواحد منهم ما يطلع لنا اللعنة إلا بطلوع

الروح. وحتى إذا طلعها لك يكون ماخذ عليها منك

سمسرة حق الخدمة وإلا أتقاسمها بالنص معك ..

ويكمل بعد أن تيقن بأنه في مأمن عن كتف المتدين وطاف حوله كالحذر ومن بعد وهو يقول:

- يا أخي! حتى البصقة الصغيرة والتفه الشرعية من

زي هذا الجالس ولو ناشفة من أصعب الأمور،

وهي والله ! حق مشروع لنا لكن صاروا حسدة

وما عاد تشوفها منهم ومن بخلهم علينا !يا بخلاء! يا حسودين!

وبنظرة حانقة:

- تحرموني من تفلة؟

حتى وانتو تكسبوا فيها أجرتكم، يا حقودين!

هنا برزت أنياب فرخعون لامعة وأخذت شفته السفلى الوردية الضخمة تهتز بعنف دلالة على بلوغه أوج الغضب، وبدأت حدقتا عينيه الحمراوين تقذف الشرر الذي تقادح في زرقة وجهه الداكنة، ثم يضرب بكفه على فخذه بقوة من السخط ويقف عن أفخاذ الرجل الجالس والذي كان يداعبه ويدس إصبعه في منخاره كل نصف دقيقة وثار في زعنون قائلا:

- افهم يا أبو مخ من فضلات أبو الجعل! السر اللي

لازم تعرفه كبير وخطير! فحاول تفهم مني يا غبي

انت وغيرك من أغبياء الشياطين والجن والعفاريت.

وأكمل وقد أدار ظهره للزعنون ويداه تتحرك في يأس وإحباط:

- عيال آدم يا زعنون، خلاص! خلاص...!

صاروا ينافسونا، وبصراحة في كل شيء من

أعمالنا وتطاولوا علينا في كل شيء!

والحقيقة المرة انهم تفوقوا علينا. وقهرونا!

وبانفعال وتوتر وصوته يتفجر في غضب مفزع:

- بدأوا من القرون الأولى يستولون حتى على أهم

وأغلى الأشياء اللي هي حق إلهي لنا ومن حقوقنا

المشروعة من بدء الحياة! وحتى اليوم وهم

مستمرون. وحتى هذي اللحظة

في غزو جهنم !!

يصرخ في غضب شديد وبحالة أشبه بالانهيار وأقرب للهذيان:

- جهنم! حبيبتنا! أعز ما نملك؟

وآخر ممتلكاتنا من الدنيا في الدار الآخرة.

نهبوا شقانا! استولوا على تعبنا وعرقنا!

وكأنه في لحظات إعلان قرار الهزيمة لأمته ومرارة الفشل تغلق مجاري الصوت راح يهز رأسه من فظاعة الألم بينما أطال في التجوال وهو يفرك يديه في عصبية وتوتر ثم توقف عندما أمتلك الجرأة ورفع رأسه وأخذ يبحث عن صوته الذي سيلقي به الخطاب الأخير بالخبر الخطير:

- بعدما كان أكثرهم يخاف منا، وفي سواد الليالي

ترجف عظامهم من أي بخه ولو بصوت بسه!

وكان أغلبهم يقدم لنا إتاوات وبأصعب الطلبات

المشروعة وغير المشروعة ومن أصغرهم حتى أكبر ملوكهم!

يتملقونا حتى يزبّطوا العلاقات معنا وننفذ لهم

بعض الطلبات وتتم بمزاجنا ..

وأهتز بغضب وبأعلى صوت:

- اليوم! صاروا عيال الإنسان الحقيرين! من دناءتهم

ما يشوفون لنا أي اعتبار ولا يلقوا علينا نظرة إحسان!

تشوف يا صاحبي؟ الزمان الخوان!

تشوف جبروت ونكران وجحود بني الإنسان!

آه، يا قهري!

طردونا من الجنة ورايحين يطردونا من النار!

من بيت أبونا ! قول لي وين نروح؟

أراد بذكاء أن يرسخ هذه الفكرة في رأس زعنون، فأطال في تكرار هذه العبارة في وجهه ومن حوله:

- فكر! أقسم عليك تقول لي وين نروح؟ وين نروح؟

الجنة وأنطردنا منها بسبب المخلوق آدم من الأزل،

واليوم عياله! غزوا النار واحتلوها! يللاه !

قول ! وين نروح؟ وين نروح؟ (متباكيا)

كان لابد أن يشارك زعنون في مثل هذه الأجواء ولكنه يشعر بسعادة أنه وجد أخيرا من يصدق أفكاره ومخاوفه وتنبؤاته القديمة! ويحمل همومه الكبرى وأن يكون هذا في شخص ابن إمبراطور ممالك الجن من الشياطين والعفاريت وصاحب أعظم الأرصدة والخزائن المكدسة باللعنات وصكوك على أنهار الجحيم الجارية وأروع القصور في الدرك الأسفل!

وأجتاحه الذعر الحقيقي من التفاتة الفرخعون الساخطة وهو يصرخ ألما وغضبا في ذيول كلامه ويظهر فيها على حقيقته كالفرخعون العبقري والجبار وابن إبليس ملك أمة الشياطين والعفاريت والجن:

- تشوف! الدناءة والنذالة حقت البني آدم! تشوف!

لكن ما عليهم شرهة إذا كانوا أنكروا وغدروا بوصايا

ربهم الأعظم اللي أعطاهم إياها حتى يدخلوا الجنة

ولا يدخلوا النار .. لكن!

لكن ومن طفاسة نفوسهم تجاهلوها!

ويهز اصبعه بأسى وتحقير:

- شفت طفاسة البني آدم فين أخذتهم؟

باعوا النعيم في الجنة! وطمعوا في جحيمنا!

ويلتف حول نفسه بغضب:

- أغبياء، أغبياء، أغبياء وحمقى!

بلا عقول، بلا عقول!

وأستمر ينتفض شرا وسخطا وعيناه تقدحان بالشرر وكأنه يتطاير من فمه وعينيه:

- تفرعنوا، تبطروا وكفروا بالنعمة والنعيم والمعطي

لها؟ وهذا الجحود هو الرد على الفضل!

الفضل اللي تركوه، وجونا ينافسوننا في رزقنا!

على حقنا المشرع لنا من الخالق ولكل ذريتنا

بالعيش في جهنم للأيد ونحن رضينا بما قسم !

أخذ يحجل الفرخعون برجليه وهو يتفجر غضبا:

- يا هوه! حتى هيبتنا وكرامتنا إتبعزقت! وإحنا

اللي كنا معشر الأبالسة والشياطين والجن والعفاريت

نموت مخلوقات الأرض والبحر والفضاء من الرعب!

ويجونا وبكل البساطة مثل الجرابيع، ويلغوا وجودنا

وحقوقنا في الدنيا وحتى في الآخرة لحقونا فيها

وامتلت جهنم بخلفتهم؟

طيب؟ ايش نسوي معاهم؟

وأكمل في حيرة واليأس يسحقه ويشل تفكيره ويحصره في أنفاق الإحباط:

- لا وصاروا يخافوا من بعضهم أو من صور بعضهم

وحتى من أفلام الفيديو والكرتون أكثر مما يخافوا مننا؟؟

يا ويلاه! خلاص! قسما ما عاد لنا هيبة ولا قيمة ولا أي اعتبار!

ومع تصاعد وتيرة الحرقة وتمزق روحه غضابا راح يضيف:

- المصيبة! أنهم كانوا طول القرون يفتروا علينا،

يفعلوا كل البلاوي والمعاصي ويرموها على أبونا

إبليس والشياطين!

يهز رأسه بأسى:

- يعني، مصائبهم يرموها علينا، كل واحد يسويها

ويقول كلها من ابليس ولعب عليّ إبليس؟

كلها من الشيطان يا مجرمين؟ وباقي الهبل يصدقوا

ويقولوا: هذا من عمل الشيطان! يا أولاد العبط!

بحرقة يروح يضرب على صدره بقوة كما أوشك أن يقوم بتمزيق جيوب ثوبه من شدة التأثر:

- لا! ومن افتراءاتهم الجديدة اليوم ايش؟ إنهم بعدما "احترفوا في فعل كل أنواع الشرور والجرائم" وأبدّعوا فيها، وتفوقوا فيها علينا. وكل الأعمال اللي كانت تسمى زمان أفعال وأفكار شيطانية يضحكوا على بعضهم ويقولوا اليوم أفعال إنسانية وأفكار بشرية بعد خراب الدنيا !

وعلى نفس الوتيرة:

- وخلاص صرنا بالنسبة لهم كُخّه! وما نسوى حتى قيمة الكلاب والصراصير هي عندهم أطلق مننا مكانة آه ، آه يا قهري!!

ويتجه بنظره إلى زعنون وراح يغمز بعين واحدة ويتحدث معه بتهكم:

- وكمان انت يا زعنون! مسوي بطّل في حركات

الأنسنة النسنوسية حقتهم هذي!

لأنك بديت تتلسلس! وصرت تتآنسن علينا .. بالحنان

والمسكنة حقتهم !

وبابتسامة ونظرات مدققة في عيني زعنون يرفع إصبعه مشيرا نحوه وهو يقول:

- **وأكيد إني بعدما أعلمك وتعرف الطريق وتتمكن**

تكفر زيهم وتتنكر لي زي الانس وتتفرعن مثلهم

وتنكر معروفي عليك! ومن يدري؟

يمكن بالنذالة الآدمية الإنسية هذي تقطع عليّ عيشي

ورزقي واحتمال اني أشحذ بعدها! حسنة لله يا

شياطين!!

فجأة يوجه قبضة يده ويطلق سبابتها نحو أنف زعنون مهددا ومحذرا:

- **شوف! ترى ما فيه شياطين ولا عفاريت ولا جن**

تقدر تلعب على الفرخعون! أبو الحنفش صنعر!

وولد إبليس الكبير، أنا الفرخعون! فاهم! أنا الفرخعون الكبير.

وتنقلب سحنة زعنون ولم يستطع أن يخفي ما يظهر عليه من الامتعاض ولكنه بذكاء أدار الحوار إلى الاتجاهات المعاكسة:

- صحيح! إنك إبليس وولد كبير الأبالسة يا أميري فرخعون!

لكن! قول لي عن ذولا الدلوخ اللي انت تجلس معهم طول اليوم؟ ايش حكايتك معهم؟

ويزفر الفرخعون بتأفف وقال بقرف:

- يا اخي أنقذتني! كانوا قالبين مخي وكذا على الريق وكل صباح فلسطين لنا، وإسرائيل عدونا، وهذا من الكلاب الصهاينة، لا هو من أمهم أمريكا، واللي يقول يمكن ما سمعت اعتراف النصارى! لكن قال المسلمون! ما قولك يا شيخ بفعال الرفض؟

لا هم من الفرس الرافضيون و..الخ، ويوميا مقرفيني بهذا الكلام! ومن الصبح حتى آخر الليل ..

يتعجب زعنون ويقول وهو يميل رأسه بابتسامة متهكما:

- طيب! انت ما لقيت في كل الخلق ألا هذا الشق!

إلا هذي النوعية تجالسهم، وتبرطع معهم! يا أخي!

كل منهم اللعنة وطير!

يتبسم فرخعون وهو يحك ويدغدغ رأسه ويفكر بتأني ثم يجيب:

- لا! الصحيح هو فيهم شوية بسط، مع هذا النكد،

صدقني! واللي يبسطني فيهم أكثر هذا الأبله

السمين المنتفخ كل الأجزاء والكحيان عديم

الحركة بطول النهار "أبو قرعة بيضاء" ولماعة!

ويضحك وهو يضع كفه على فمه تعبيرا عن الشمات:

- أما هذا مسوي نفسه أكبر مثقف وأعظم فاهم ويبغي

يثبت أنه شيخهم وإلا عمدتهم بس، يبسطني انه يطلع

مع كلامه ريحة يا لطيف! تدوخني وأنا أدمنت

عليها بصراحة هههههي

ومع عاصفة الضحك المتواصل يواصل شماتته بالرجل:

- ويتفرق الجالسون في صمت ولا أحد يعرف من

فين تطلع؟ والغريب ما نسمع لها أي صوت فما

يعرف من فين مصدرها بالزبط؟

ويصاحب كلام فرخعون تقليد لحركات الرجل الآخر وبكائه أو البكاء الإنسي:

- وهذا يا حبيبي... يجيء في الصباح ويبدأ في التألم والتباكي وبعدها يأخذ الدلخ الثاني أبو ذقن طويلة بس لونها عكس قلبه؟ يكلمه عن شويّة الدم اللي تطرطشوا في اللي تتسمى "جانا" .. أو يمكن غانا؟ ما أدرى! أنسنوني الملاعين! أعوذ بالله من الإنس! ايوه افتكرت! القرية اللي اسمها قانا! صح؟

فيقاطعه زعنون بسخرية وشماتة:

- يا أخي المفروض تشعر بالفخر! إن الخالق خلق وفرق! صغّر لهم خشومهم وعيونهم وشلاظمهم وبكذا صغرت معها عقولهم! وإلا اش يبكيهم من الأصل؟

وباستغراب:

- **بالله عليك اش معنى طرطشة المياه هـذي اللي يسموها "بكاء" أو دموع؟**

ويندفع الفرخعون بحماس:

- **وعلى إيش؟ على شوية نسوان مقطعة مع شوية دم من عيال أو أطفال صغار مذبوحة؟**

وينتقل الكلام للزعنون:

- **وإلا أحيانا عند السفر؟ ترى الواحد منهم يخر مويه وهو يودع أو يستقبل أي مخلوق هههها وبعضهم يسوي فيها حبَيب ويطرطش لمحبوبته في الليل كم نقطة ويقول ..أبكوا على ما جرى لي يا هلي ، مثلا!**

ويعود الفرخعون ليدلي من جديد في المسألة:

- **المصيبة إن طرطشة المياه هذي هي الدليل على أقوى مشاعرهم! وحتى يثبتوا انهم صادقين**

بمشاعرهم. لازم يمشوا ويخرون ماء ويطرطشوه

في الحزن وفي الفرح وفي أي مصيبة وأي مناسبة!

ويتساءل فرخعون مدعيا الاستغراب بسخرية:

- موية ؟ بس مويه ؟ وهل هذي الموية تكفي

وتعوض عن كل الدم اللي سفح في قانا مثلا

أو غيرها من شلالات الدم ؟

طيب! كان على الأقل خلطوا المياه بشيء له قيمة!

مثلا شغلات مثل السحر .. ويخلطوا معاها سيوف!

لو من خشب لكن بس طرطشة مع هنوصة بصوت

الحملان: ماء، ماء، ماء هههههي

ويتدخل الزعنون ليدلي دلوه أو ليسهم في إكمال لوحة التندر ضاحكا:

- وإلا خلوها مواسير حديد أو رمي بالحجار، وإلا

طلقات نار وكأنها بالغلط وإلا بقصد التخويف.

والأشطر بدال الماء يحولوه بنزين! وهو يملأ

كل أرضهم.. وممكن يولعوا في كل الدنيا نار!

وكأن فرخعون أيضا أعجب بالموضوع وأندفع فيه وبالحماس:

- لا! وبعدين أشكالهم يطلع فيها غلط! ويمكن تموّت من الضحك!

تلاقي فيهم ناس في جهة تبكي بألم وتطرطش على ميت أو مقتولين!

وفي نفس اللحظة فيه ناس منهم ومثلهم في جهة ثانية يرقصون وحولهم يغنون على سماع أخبار هؤلاء الأموات!؟ كيف ؟ ما يصير؟

يا إخوان الأبالسة ما يصير يا رقص يا دموع!

ويأخذ زعنون الدلو من جديد ليسكب جديده:

- ويا ليتها تنتهي على كذا!

أنا شفت منهم الأكثر من كثير كانوا يطبلون ويرقصون فوق دم أو جثث المقتولين؟ وهو من أمتهم ؟

وبكل الحيرة يعود فرخعون إلى دهشته:

- ولما تتأكد من الوضع تلقى الأطراف هم القتلة

الفرحانين والنائحين هم جانب وهم أهل للقتلة

وللمقتولين ولما تتعمق تلقاهم جماعة واحدة

والأطراف من أسر واحدة!

الغاية! في النهاية هم كلهم أخوة في الدم أو جيران!

ويضيف زعنون شيئا من خبراته عن بعض البشر من حوله:

- وأنا شفت مرات الطرف الأول يقتل في الثاني

وجندلهم بالمئات والألوف مثل الشياه في الحج!

ويجي الخبر ولا تشوف أحد من أهلهم أو من

المتباكين في الأمس ينزلون من أعينهم نقطة ماء

واحدة! بشرغريبين حتى في إجرامهم؟ هههها

ويضحك فرخون مفسرا الغموض المدسوس في أمر المذكورين:

- بس ما هو يمكن المياه مقطوعة عنهم من كثرة الاستهلاك ولا يسددون!

والأدهى والمحير واللي يأنسن مخ الواحد، انك تلقى القتلة هم اللي يبكوا على المقتول وتشوفهم من بكره يمشون في جنازته؟ عليهم الخيبة !

وما يزال موضوع طرطشة الماء يشغلهما إذ أضاف زعنون من جديد:

– والغريب! القطرات هذي يا أخي يشوفونها شيء

عظيم! أو شيء مقدس! والحقيقة هي ماء مالح!

وإذا بزعنون يخلط الضحك بالشماتة وبالاستهزاء:

– ويقولوا إن عندهم تصحر! وشح في مصادر المياه؟

ما هو من كثرة مصائبهم .. شربوا كل ماء الأرض

وطرطشوه في البكاء وتبخر في السماء!

ويكمل:

ما هو اللي يشوف كثرة مصائبهم وكثرة طرطشة

المياه من عيونهم ما يصدق إن عندهم تصحر يعتقد

ان أرضهم كلها أنهار وبحيرات...

وضحك فرخعون بسخرية كالمسطول:

– هي فعلا كانت وشربوها وطرطشوها

إذا بالفرخعون يسكته وينبه إلى أنه سيقول سرا مهما وخطيرا وبدا صوته وهو يتحدث وكأنه يلهث اثر خروجه للتو من كهف موحش أو بحيرة عميقة:

- انت عارف هذي القطرات اللي يسمونها "دموع"

هي ايش تكون بالنسبة لهم؟

ويرفع زعنون يده استسلاما بينما راح فرخعون يقف ويستدير حول نفسه وهو يتحدث بأفكاره بتوتر وكالمس:

- هذي حاجة رهيبة لو عرفت سرها، وقوة غريبة؟

هي سلاح، ولعبة، وبنفس الوقت هي .. فن !

يصمت زعنون مندهشا من المفاجأة بالمعلومة ولم يعلق وربما فرخعون لم يترك له الفرصة إذ انبرى وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- شوف الواحد منهم بكم نقطه يمكن يقوّم الدنيا وما

تقعد بعدها!

وشوف كيف ترش على الجثث على أي نوع من

الأموات حتى اللي يحصدونها بأيديهم ..

وفي حيرة يروح يضرب كفا بكف:

- والأهم والأكثر غرابة! أنه بعدها بثلاثة أيام أو

أربعة ينسى الجميع الأمر كل الأمور ويروح كل

واحد منهم في طريق وينام مرتاح؟

وهز راسه منتضرا:

- شفت كيف قداستها وخطورة عملها في حل أعظم

إشكالات البشر!

وكأن فرخعون بتلك العبارات تذكر بداية موضوع ليعود لحكايات زبائن القهوة:

- ذا عالم انسي غريب! أشوف كل يوم هذا الأصلع

يهمس في أذن صاحب الذقن الطويلة ويظنان بأنه سر!

ويكمل ضاحكا:

- وبينا هم جلوس على الطاولة وأكون أنا قد

أسمعته للآخرين أو نقلته إلى أذهانهم فيتبادلان التهم

بالخيانة ويفضحان أنفسهما في كل عمل شرير سابق

وتنهال الحقائق ثم أدفع يد أحدهم لتلطم الآخر بعدها

تنتشر عدوى التلاطم وأستمتع بالمشاهد في بقية الوقت ..

ويتابع ضاحكا:

- وحين يسكتهم التعب وبعد لعق الدماء عن الجراح

يهدؤوا ويصطلحوا، ولكن بعد أن يرموا بلاويهم

علينا ويحملونا المسئوليات بمئات اللعنات

ويفرك يديه مبتهجا:

- وأنا انبسط منهم ومن أهل البلد وهم يجلبوا علينا كل

الشبهات وندان بكل الاتهامات عن جرائمهم!

وبكل خسة في كل المساجد يحرضون الله وكل الناس

بالدعاء علينا وبعظيم اللعنات ...

وهنا يجد زعنون المدخل المناسب:

- ايوه، ايوه! يا أخي والله من قوة اللي أسمعه في خطب

الجمعة بعد أي كارثة من كوارثهم وبكاء الخطباء!

صدقني بعدها ما عاد أعرف النوم وأرتجف من شدة

الخوف وعيني على السماء أن غضب الله بيسحقنا!

ثم وجسمه يرجف وبدنه يقشعر وهو يتصور الموقف:

- وتمر أسابيع وكل يوم أترقب النازلة من الله، ونزول

أكبر المصائب علينا معشر الشياطين والجن وفي

أي لحظة بأسباب قوة دعائهم، مع أن الله عارف

ان الكوارث والمعاصي معظمها منهم، وكلها من

سوء أعمالهم. وحنا اللي نموت من الرعب!والله! قهر!

وجد فرخعون ما يربط فكرته السابقة وتابع قائلا وهو يفكر ويحك لحيته الصدفية البارزة من امتداد صدغيه وذقنه:

- صدقت يا زعنون! إن للبكاء والدموع فيهم مفعول

أقـوى من شغلنا عليهم بالرعب والسحر والشعوذة!

أما الدموع سلاح خطير علينا جدا جدا، بالذات

الخطباء في خطورة السلاح النووي عليهم !

وأضاف:

- ولكنهم! يستخدمونها كثير بس بغبـاوة، أو في

شغلات اسمها "بربسة"!

وفي كل وقت! حتى صارت مستهلكة أو "تكنولوجيا

عربية محلية" مثل اللي تباع بأضرارها للناس في

محلات "أبوريالين" إلا.. نوعية استعمال حبـايبنـا من نسوانهم! سلاح بجد !

ويتفاجأ زعنون بالمعنى، وإذا بالفرخعون كالمستيقظ يسارع للشرح حول من يستثني ويتحدث عن أشياء أخرى وهز عندها زعنون رأسه مع نظرات اللؤم والتوعد والفرخعون يتابع في الإطراء بكل الابتهاج والنشوة:

- هـنَ! أي نسوانهم وبس! هن اللاتي .. يشتغلن بذكاء

وبتفاني! واللائي يستخدمنها وبالنجاح المضمون!

وأخذ يهتف ممجدا:

- بورك لنا في هؤلاء المخلصات منهن، وفقط!!

وأفض عليهن من واسع السخط وبأعظم اللعنات

وأغدق عليهن وعلينا المزيد من ركام أعظم

اللعنات والذنوب، كي ينعمن معنا في أعمق أعماق الجحيم ..

وصاح بزعنون أن يشاركه عاليا بالتمجيد:

- بورك لنا فيهن!!

أيد زعنون أفكار رفيقه ضاحكا وفي مخيلته تموج آلاف الصور والأمثلة والمشاهد المثيرة والممتعة عن ملايين الحكايات من نوع هذا الإبداع المذكور وخلال الحقب من الزمان وبتتالي العصور:

- ايوه صح! هم اللي يعرفون قيمة الدرر الفضية!

وهم اللي يصرفونها وما تنزل بالرخيص!

بمجرد ما تنزل حبتين لأي رجل من بني الإنسان

وعدونا الإنسي الذكر الشرس حتى نجده فورا يلقي

بأسلحته ويطلع قدامها صوص! حمل وديع، وخادم

مطيع ... هههههها

ويروح فرخعون يهتف ويرحب راقصا وكأنه في حفلة ملهى مصري:

- هنّ وبس! هن وبس!

وسلم لي على المخلصات!

هن وبس! وهن لنا المخلصات! هن حبيباتنا وبس!

وغيرهن لأ ! وغيرهن لأ!

المحجبات لأ، والملتزمات ألف لأ ولأ للمتعصبات

وراح يبالغ ببهجته ويكمل متفاخرا:

- يا أخي هن بأسلحتهن المتعددة يكسبن الذهب!

فحين يطلقنها على الرجال في كل اتجاه، ويسلبن

عقولهم .. وممكن يرتكبون من أجلهن كل الحماقات

والجرائم، أو يفرغن ما في الجيوب والخزائن

العامرة وممكن تؤول البيوت أو الدول إلى خراب،

وأظهر قوة سروره واعجابه بهن:

- تهيل كيف يشعلن برامج قوى الغيرة والأحقاد ..

اسأل التاريخ كم شنت الحروب شنت من أجل أعين

محبوباتنا، هن وبس ..

ويبدو أن محاضرات فرخعون أطلقت في زعنون النجابة وبذرت فيه نوى التفكر الخطر ليتوصل بسرعة إلى استنتاجات كانت تحيره أو تشغله:

- ايوه، ايوه! في الوقت اللي كان يظن فيه "الدلخ "

إنه هو الذكي وهو القوي، وهو ماشي وراها، وهو

من جنبها!

ويا عيني! يلف حول نفسه ألف مرة ويتوقف وتلقاه

يترنح بلا توازن ولا عقل، وأخيرا يقعد يطرطش

لها الدموع مثل " النونو"، هع

وكله مالح في مالح، وأملأ وعبئ ..

أراد أن يصحح الفرخون من معلومات زعنون وأحكامه المتسرعة:

- لا، لا !

إلا حبيباتنا المخلصات!

والله لو، ولو يملأ لها من المالح أكبر محيط لازم

يخنع لها أولا، وينفذ كل المطلوبات

ثم يهتف بأعلى صوته:

- واللي خلقك! أنا بصفتي الفرخعون أعتبرهن أحب

لي من بناتنا الشيطانيات، لأنهن يثبتن دوما بأنهن

الأكثر اخلاص لنا

وأنهن الأفضل والأشطر فعلا، ولذا أعتبرهن

الأذكى والأقوى من بناتنا ...

ويعلق زعنون وهو يضحك ساخرا للتحسن الجيد في ذاكرته:

- ايوه، ايوه افتكرت! مثل صاحبنا الرهيب المرعب

اللي كان يدمر وينشر الرعب في كل العالم ويذبح

ألوف البشر طول النهار وفي الليل وانت شفت

كيف كان يسهر ويطرطش الموية على ذراع "أيفي" هههههها

ويكمل الفرخعون:

- وتسأله بكره ليه؟ يقولك بكيفي أنا حر! إنا أقوى البشر! وشغل مخك! من أجل عيونهن يسهل عليهم ارتكاب كل الجرائم وقتل الآخرين أو يقتل نفسه انتحارا هههههي ...

وأفاض زعنون في الموضوع مستمتعا بالشماتة:

- صحيح هو منظر يضحكنا، لكنه عادي جدا عند كل ذكور الإنس المستقوية، وتذكر انت أقوى فرسان التاريخ! كيف البعض منهم أثناء المعارك يصرخ بأسمائهن افتخارا وهم يرتكبون المجازر الدموية وربما من أجل المعشوقة أو لإمتاعهن وللتباهي أمامهن!

وفي مشهد تمثيلي:

- وبعد الانتهاء من القتل تلاقى الواحد في المساء ينوّخ

راكعا يطرطش الدموع وتحت أرجل صاحبته!

ويضيع عند أرجلها كبرياء وشموخ البطل وبقليل أو

شوية ماء، هذا يا حبيبي شغل ناعم والله!

ويقاطع فرخعون إسهاب زعنون:

- ويجب أن نشكر الخالق أن سخر لنا بعض بناتهم

المخلصات ونروضهم لخدمتنا، واللي اشتغلوا معانا

أحلى الشغل. وبالطبع أكثروا لي حتى من الذكور

اللي استفادوا من خدماتي واستفدنا منهم..

وبصراحة! هنّ ملأن خزائني باللعنات وهن

يشتغلن بفن وتكتكة!

ويرفع رأسه وصدره كالعادة وكأنه سيلقي في الملأ قصيدة:

- واللي خلقك! يتشغلوا كل "حته "صح! كبيرة وإلا

صغيرة، هن ترسانة أسلحة دمار! وعلى الأقل لما

تشوف الدمعة اش تسوي! وهذا غير الأسلحة

والمواهب الأخرى ..

ولو بلمعة الظفر وإلا كهربة الرموش والغمزات!

يا حبيبي!

ويقهقه زعنون:

– يا لطيف! ذي تسوي في أي خروف البلاوي!

يا شيخ! تلقاهم يستسلموا قبل أي استخدام للقوى

الخارقة للأسلحة والأجهزة الكبيرة! واللي كلها

"ربش" كبير وخطير ..

ويجلس فرخعون وعلى محياه تنتشر ابتسامة عريضة ويوجه الكلام لزعنون في تباهي:

– انت لو إنك معاي البارح في حفلة في دبي!

وإلا لو رحت وكملت السهرة معي ساعة وحدة

في ملاهي القاهرة، وقضيت معاي ساعة

في منتديات البصرة وبغداد وزرت منتديات

الشام ونوادي بيروت وطفنا على فلل وقصور

كازابلانكا وفيه بلدان نسيتهم بمزاجي ...!

ويقفز واقفا في نشوة ما سرده من الرحلة:

- كان بصراحة شفت بنات الإنس مع بناتنا كيف بسطوني هناك! كلهن مخلصات، قوي، قوي! ورّوني وشفت العجايب منهم مع كل هيصة وطرب، و .. أوه ! لو كنت معي ..

ليهتف زعنون بلؤم:

- كفشتك! يا ملعون! يا فرخ فرعون! وعليك مني ترخ زمعليارين دعوة هداية بالحسنات، لأنك ما تستأهل اللعنات! لأنه أنا اللي جرجرتك وعرفت كيف تجمع أرصدتك الرهيبة، لكن أحولها لك لعنات لو تجاوبني وبصراحة عن سؤالي! مين اللي يرش عليك دايما أكثر اللعنات وبكرم زايد أكثر النسوان وإلا الرجال؟

أبتسم فرخعون بخبث ودهاء مصحوبة كالعادة باستعراضات التباهي:

- طز بحسناتك ولعناتك! وتساؤلك يثبت إنك ما عرفت

أي شيء وهذا رايح أخليه سر !

ليتوسل إليه زعنون:

- تكفا! لا تشغلني بالتفكير المتعب، جاد عليك الخالق

من أقوى نسائم جهنم...

ويبتسم له فرخعون ساخرا من دعواته وكسل صديقه حتى عن استخدام تفكيره وفي أبسط الأمور:

- طيب! وبصراحة كلهم كرماء وبسخاء!

وان كانت أكثر المكاسب من النوع طويل الأجل!

يعني ليست فور الانتهاء من الشغل أو في نفس

الليلة! لكن الأهم انه رايح يوصلني حقي ومضمون.

وأراد أن يفسر شيئا على وجه السرعة:

- مثلا، إن البعض تكون لما يرجع للواحد منهم

عقله في أي يوم أو بعد التعرض لمصيبة ويواجه

نفسه بالحقيقية وتبدأ في لومه على كل غلط!

ويبدأ يرسل علي اللعنات وتنزل علي ترخ زي أحلى

أمطار الطايف في عز الربيع والصيف ..

وانجرفا معا بالضحك وفجأة يتحرك زعنون يزحف على ركبتيه ويجلس عند قدمي الفرخعون متوسلا هذه المرة:

– أرجوك! أرجوك زدني علما يا سيدي الأمير

فرخعون، يا جهبذ! يا مخ إبليس الكبير ومفكر بني

شيطان ومحقق الأمجاد لأمة العفاريت والجان ..

ابتسم فرخعون مفتخرا ثم أكمل وهو ينظر في البعيد ربما متمتعا بمشاهدة فلم سينمائي يتوقع أن يصوره البشر ويعرض في القرن الخمسين، ثم يلتفت نحو زعنون بنظرات المتأمل:

– ما قلت لك توقف وتبطَل الأنسنة حقتك!

طيب، يا نسنوس شوف! أحلى حاجة لمن تتداخل

وتشتغل مع اللي تسمعهم يصرخون بعبارات:

الأخوة، الوطن، الوطنية، الحرية، الشرف، ديننا

هو الحق والطريق الوحيد ونحن القومية والتعاون

المشترك وهؤلاء منهم

ملء الأرض! ونهايات هؤلاء معروفة وهم أفضل

الظروف لألذ الطبخات.

فأنت تقدر تولع لهم النار الهادية وتزودها كل شوية

حبتين وتصنع السلطات والحلويات وبمزاج عالي!

ويصرخ على طريقة الكاو بويز:

– وتعال أتفرج! وهم يأكلوا الطبخة، يا حلو!

تلقاهم يستمتعوا بطرطشة دم الأخوة والوطنية

والقومية وكله!

وعلى كل وجبة وبأيدي الأخوة يشربوا بالهناء

كؤوس دماء الأخوة وأبناء الوطن وبأيدي أبناء

الوطن ويقدمهما بكرم حماة الوطن..

كل هذا يجري وهم يتغنوا ويسمعوا أغاني تنادي

بالألفة والمحبة والأخوية والوطنية!

ويمسك فرخعون رأسه بكفيه وهو يكمل:

– لك، لك، لك! ولك فرجة! ولك متعة! واللي خلقك

كل الناس تبطل النوم، وليلها يصير نهار والكل

مستمتع أو غصب عنه بطرطشة الدم والدموع،

وكلها أيام وتطول بعدها شهور وانت اللي رايح

تستمتع! لأنه مع كل مصالحة تلقى نصيبك فيها

أطنان من اللعنات وتهل يوميا عليك

من فوق وكل الجوانب، واستحم يا عم!

ويفرك يديه في نشوة:

- وبكذا يا عم زعنون تضمن لك يا أهبل! دخل

مستمر، ولما تحبكها كمان وكمان تستمر المشاهد

والدموية مثل المسلسلات المكسيكي والتركي

الطويلة المدى، وأملأ وعبي خزاناتك، يا غبي!

يا أبو أوروبا، وسياحة النقاهة عبر القارات ..

هاه؟ فهمت مني شيء؟

وكالمخدر أخذ يطلب المزيد من المتعة من فرخعون:

- ياه، ياه، ياه! فينك من زمان؟ مخلي الهموم

والإنس تركبني؟

وأتعرض لحالات تأنسن خطيرة وانا خويّك؟

كمان! كمان!

أمتعني يا أمير بخبراتك!

يا ملك خزائن التفّلات واللعنات!

وهنا يتشجع فرخعون ويتعرض لنشوة استمتاع قوية من الطلب:

- الأكثر حلاوة وانجح! لما تتداخل بين اللي يسموا

أنفسهم مصلحين واللي هم أصحاب تجارة في

بعض المذاهب والنحل!

- وهؤلاء يتوقع لهم طفرة في انتعاش أسواقنا معهم

والمضمونة الربح...

ياه! ياه! مطر! مطر لعنات، وقول تتفجر

فيضانات، وقول تسانومي التفل والبصق المركز

والمصحوب بعواصف معطرة بأقوى اللعنات ..

وينظر فرخعون إلى زعنون ويتساءل بتعجب:

- يا أخي يا زعنون! بيكونوا تحت كلمة واحدة

ويقولها مائة مليون إنسان وفي وقت ولسان

واحد، وترتج تحتهم الأرض! وتحسب أن

ضربتهم المهلكة بطاقاتها المليونية الواسعة قادمة

في ضربة عظيمة وبسندان واحد، أوه!

ويضحك من نفسه ويرفع يده معتذرا من زعنون:

- معليش! علشان فارق الثقافات وقصدي هو ضربة

وحدة وبشاكوش واحد، وقول مطرقة حديدية

واحدة ضخمة، ويقال أيضا بضربة مرزبة واحدة.

المهم تتوقع إنها نازلة

وفورا على دماغك ولا محالة، وفجأة! تلقى لهم

تحركات مع روائح أثناء

الركض الجنوني في كل الاتجاهات المتفرقة

وطبعا كالعادة بلا نتيجة !

ويكمل بعد الضحك:

- والسبب بشيء من الخرفشة الإبليسية بينهم وآسف

قصدي الإنسية وإذا هم يشقون طرق بعددهم

الانفرادي قول مائة مليون طريق وجادة ويخت

وطائرة خاصة معدة للهرب! وكل واحد أنفلت

"لحاله" وفي طريق هرب خاص لسيادته أ

والعجب العجاب! وخالقك! فيهم جبروت في شغلة

واحدة بالذات في باب تحليل قتل الإنسان للإنسان

يا سلام!

فنانين صح!

يأخذ بالبصق شتما واستعاذة من بني الإنسان ثم يكمل:

- وهذا بصراحة هذا أقوى بألف مليون ضعف من

فكر وجرأة الشياطين!

يا أخي وأنا ابن ملك الجان! قلبي ما يطاوعني أقتل

أي شيطان أو انسان منهم وبيدي! وبالكميات

الرهيبة هذي؟

ويواصل الفرخعون سخريته:

- ويا أخي! قبل أي مصيبة ما تدري كيف في دقائق

يقسموا أنفسهم بين القارات، وينتشرون فيها وفي

كل الاتجاهات وهم يحملون اتجاهاتهم الفكرية ويضيع فيهم سكان القارات المساكين!

وأتوقع أنهم قد قسموا واقتسموا بينهم القارات

ويضيع أهل القارات!

يمكن رايحين يفككوا جميع العالم.

وبغيض ودهشة مختلطة بمشاعر عديدة أخرى متناقضة:

- يا رجال! حنا جنبهم مجرد عفروتات ومن النوع

البوسي أو الناعم الرقيق المدلل، لكن!

أعترف لك!

أنا متعتي وكل ثروتي وبصراحة من شغل الشر اللي

يسويه البشر! وبدون أنا ما أوسخ يديني!

لأنهم وبعدها يتهمونا فيها وتنزل علينا لعناتهم وهذا

المطلوب!

وفرقع بإصبعه لينتبه زعنون للمعلومة السرية أو الوصية الجديدة لكسب اللعنات من البشر:

- وعشان آخذ حقي المطلوب وزيادة أجلس غير بعيد

عن الجوامع حقتهم، وانبسط يا عم!

واستمتع لأحلى اللعنات، وتلقاني أسبح في أنهار

من خلاصات البصق "التف" والطازة!

وكل الرّك على شطارتك في اللم والجمع، ومنها

تضمن مستقبلك في جهنم يا أبو مخ متبخر تحت شمس السياحة الإفريقية!

ويبدو أن مخ زعنون من النوع الإنس–عربي! والنوعية السوبر المتحجرة في المرونة! فهو لم يتعلم التسامح الحقيقي والمشاركة بعفوية! ولذا لن يتقدم مع خاصية انعدام الفطنة للحكم والتحكم بما يراه ويسمعه أو للسيطرة على ما يفعل من عظيم الأخطاء!

وأن كان فيما سمعه من فرخعون هو من الدروس المجانية الهامة ولكنه جلس بعدها مديرا ظهره للفرخعون مكتئبا وليقول بعدها بحزن:

- طيب! يا أخي، أنا محتار من البني آدم! فمع إنهم ما

هم في قوتنا ولا في شيطنتنا وشطارتنا فقد أستطاع

أكثرهم غباء أن يحجز له أفضل المواقع والمساكن

في جهنم!

ورايح يخليني بقدراتي بعدها أبحث عن مأوى!

لقد ألقى زعنون بمكر وبأسلوب بريء وساذج أثقل همومه بل أخطر قنبلة والتي جعلته يهاجر إلى ما وراء المحيطات، وكان فيما قاله ما تفجر في أعماق فرخعون وجعله يترنح فاقدا تماسكه ومعها كرامته!

فقد أتت اليه الضربة الصاعقة والقاضية من هذا الذي طالما أعتبره أغبى المخلوقات؟ إذ كشف له زعنون بوضوح أبعاد أعظم هموم الأبالسة الخفية ومستقبلهم القادم نحو الدمار، وهو يسمعه يقول:

- لكن! بعضهم يا خويا فرخعون حطوا رؤوسهم

برؤوسنا وللأسف!

وبصراحة لو تزعل يا أخويا يا فرخعون هذا

البعض يتفوقون على صطم ترخ فرخعونات منك!

ومعاك كل أرصدتك اللي من كل نوع!

وبكل الخبث راخ يقول وهو يتفحص عيني فرخعون بنظرات قوية:

- مثلا، زي هذاك الرجال! واللي هناك! وكل اللي

بالك، وطبعا تعرف رطني، هاه؟ يعني هم اللي رايح

يكتب لهم الشيبة الكبير أسماء أكبر الشوارع

وباسمهم في العاصمة المحبوبة "الحُطمة"!

وأقترب منه ليسر في أذنه بأسماء بعضهم! وأداره ليبصر تماثيل نارية لبعض هذه الشخصيات الممجدة بينهم من بني الإنسان وهو يشير إلى معالم الميدان:

- وشوف! حتى إنهم حطوا لبعضهم تماثيل ملتهبة

ونصب تخليد من الجمر" النادر" في متحف

"السّعير"! وأظنك تشوفها دايما بعينك؟

وهناك الكثير من التماثيل الجديدة لبعض أشهر

الزعماء العرب اللاحقين اللي بتنافس السابقين

وهي متألقة اليوم في "ميدان التحريق الشيطاني"!

ويستدير زعنون عنه بعنف معبرا في هذا عن شدة تألمه وازدرائه لعظمة الفرخعون ابن إبليس أكبر ملوك الشياطين والجن والعفاريت وقال بلهجة استفزاز:

- حاجة والله تحرق قلبي كجبال من الثلج!

وبعد هذه العبارات القصيرة الملغومة التي فجرها زعنون خيم عليهما صمت مطبق، ولم يرد فرخعون للحظات وقد سمع ما قاله زعنون رغم أنه فغر فاه قبلها من جرأته وتطرقه لمواضيع لم يتوقع أنها تخطر بباله السقيم أبدا!

وأستمر صمتهما وكل منهما يفكر في نفس الفكرة ولكن بطريقته! وأخيرا هزّا رأسيهما في أسى بالغ وتحسر!

ولكن زعنون عاد ليقذف بالمزيد من القنابل المحرقة والممزقة في رأس وقلب فرخعون إذ أدعي زعنون بأنه تذكر تلك الأشياء ويقولها بعفوية وهي سموم تقذفها أعماقه في الأجواء ليرتوي بها الفرخعون:

- على فكرة! أنا كنت سمعت في رحلتي أخبارا في أوروبا بدت سرية وخطيرة! واسمح لي نسيت أخبرك عنها من كثرة الهموم!

وبعد أن دار مرات بروحات وجيئات لبعض الوقت وكأنه يستجمع المعلومات وفرخعون يرقبه في غضب صامت ويكاد يتفجر كسلاح نووي مشتعلا ومسببا حريقا ودمارا هائلا لو تأخر دقائق أخرى قبل أن يكمل زعنون وبنفس النظرات الخبيثة:

- يقولون إن عظيمنا إبليس قام بإحالة أكبر قيادات

الأبالسة إلى التقاعد، وكذلك سرّح أكثر الخبراء من الشياطين.

وركض زعنون ليلتصق بالفرخعون في رعب شديد ويكثر من الالتفات مظهرا الرعب وحتى يطمئن ليهمس في أذن فرخعون:

- لأن الإمبراطور قرر أن يستبدلهم ويستورد بدلا عنهم، وهو يفضل الخبراء مع الكثير من العمالة المتخصصة من بني الإنس وبخاصة تلك العبقريات العربية!

ورفع رأسه ليقول باستهجان مبطن يخص به الفرخعون:

- هذا عندما ثبت له إن فيهم المتفوقون في الشر وفي الجريمة والقسوة في الإرهاب، وانهم أبلغ الهمم والقمم في الجبروت وبتميز كأشد الأعداء للبشرية والأعظم في الحقد من الشياطين التي أصبحت لا تبدع ولا تبرع في عملها وفي نتائجها ..

ثم وهو يلحن مقولته بعبارات يتوجس من خلالها صفعة مفاجئة أو ضربة قاتلة عقابا عليها، وبدأ وكأنه يستعد للهرب أو لتفادي بعض زخم الضربة الغاضبة من الكبير فرخعون:

- وهذا يعني بصراحة! إنهم في الطريق نحونا ليقطعوا علينا رزقنا في الدنيا! وهذا قبل الآخرة!

ونمسي مثل فقراء النصارى! لا دنيا حصلنا ولا آخرة!

ولأول مرة يظهر ذلك الذهول والرعب على وجه فرخعون الداهية وفي نظراته الزائغة ظل يقف في تجمد مع ملامحه مستغرقا في التفكر بينما تتلون صفحات وجهه بألوان متنافرة بين الفاقعة والداكنة بالتناوب وكأنه تحولاته بين الهموم والغضب والانزعاج الشديد وأخيرا أطرق برأسه بين كفيه وبحزن وعمق تفكير قال:

- تعرف؟ المشكلة؟

ما هي في قوتهم، ولا في أجسامهم اللي مثل اللبان!

ولا أصواتهم الناعمة وعيونهم الصغيرة الملونة

مثل الخرز وخطوط الشعر اللي يسموها حواجب

ولا في الشوارب وشعرات الذقن واللحى، ولا من

أفراخهم اللي نربيهم ويطلعون فيها علينا، مسخرة!

شوف كيف يتراقصون بشعرنا الملون المنكوش

وبالوجيه المزخرفة المضحكة مع جلودهم

الموشومة مثل جلود السمك ..

ثم يصرخ الفرخعون من شدة الحنق والقهر بصوت عال:

- المشكلة الحقيقية هي في شوية الزبادي اللي في طاسات دماغهم، هي اللي مملوءة بمواد المكر واللؤم والدهاء !

وتغيرت ملامح زعنون وكأن مقولة فرخعون عن البشر لم تعجبه:

- لا! أرجوك لا تمدح فيهم! صدقني ما فيهم من الذكاء والعقل قد حبة العدس!

يا شيخ كل اللي يعملون هو نوع من الهبال وبدون فكر! فكلما تورطوا في خطيئة تطلع المسألة في دماغهم عناد ولعانة! ويخربونها أكثر بغباء وتصير الأمور كأكبر جريمة لأكبر المجرمين.

وكل حكايات مصائبهم هي كذا ليس إلا!

ويمد نحو الفرخعون سبابته للتنبيه:

- وأخيرا تعرف الإعلام حقنا! أو حقهم ما تفرق! يطبلوا لهم ويزمروا لهم وبعدها يشتهروا وتجي في دماغ العبيط ويتفرعن ويسحب البساط من تحتنا

وبس! هذي الأوضاع بكل بساطة!

فلا تقول انه ذكاء من بني آدم!

وبحماسة غاضبة أكمل:

- واللي خلقك! ما عندهم وفيهم إلا الرعونة الرهيبة

وعواجة مخ!

والتمرد والمكابرة عتد الخطأ .. حتى مع ربهم!

في مكابرة وتحدي أشبه بالعصيان وان أتت عن

غير قصد فهي أدهى وبالعناد!

تجيبها توديها هي كذا! وما فيه عندهم غير كذا!

وبنظرة خبيثة أو ربما بغباء يتنهد زعنون مضيفا:

- يا خي! الله يكفينا شر الإنس وبني الإنسان ومن

كثرة بلاويهم في أرجاء الأرض!

وأنا متوقع بكرة من كثر عبطهم يحتلوا كل جهنم

وبعدين ما نحصل لنا فيها على مكان لرؤوسنا!

ويضحك زعنون عاليا ساخرا من فرخعون في عمق نهاية الفكرة:

– وما هو بعيد تنطرد منها انت يا ولد الملك! وهيَا

قول لي فين نروح؟

فيتفجر فرخعون بالغضب وظهرت عليه أقصى مشاعر الهم والإحباط أكثر وضوحا في الوقت الذي انحسرت واختفت كل معالم البهجة وأهمها خاصية التباهي والتفاخر والتي اختلطت مع موازين مقدرته في الحوار وبمشاعر متعاكسة وهو يتحدث بعبارات جديدة غاضبة حينا وتارة متوترة وأخرى محبطة أو مختلطة بالذل أو الدعاء والتوسل ثم التهور فيهجم هذه المرة وهو يخنق صديقه زعنون صارخا فيه:

– أسكت يا ملعون! لا تفكرنا في ذا الحال وهذا الفأل

السيئ! تف، تف على بني الإنسان من فمك وتعوذ منهم!

يللاه! تف! أنا أرجو وأدعو إننا ما نشوف هذا المكروه اللي

قلت عليه في يوم يبعثون! يا وجه الهم والنحس!

ولكن فرخعون يتوقف فجأة عن هذا التشنج والهجوم وإذا به بعد لحظة الصمت يأخذ بلطم خديه ويتسمر واقفا! وفيما يبدو أنه يتعرض لحالة انهيارا مفاجئة للذل الذي اجتاح هيبته وغطرسته وقضى على قدرات صموده فدخل في ذهول ذهني ليخرج بعدها صوته في ضعف متقطعا ومتهدجا:

– بصراحة! انت الصادق وانت حطيت يدك على كل

منابع لآلام القادمة وكنت أخفيها بان هذا المستقبل

الأسود مع بني الإنسان أصبح في منتهى الخطورة وما يطمئن أبـدا!

ويكمل في تبرم داخلي وظاهري بين اليمين واليسار:

- وكلامك واللي خلقك في العضل، وفي نخاع العظم!

فطموحاتهم هذي مع قدراتهم على التفوق الدائم

علينا في الشر وبالرعونة والعناد مثلما قلت مع حبهم

الأزلي في الاعتداءات الوحشية وفي الظلم والافتراء!

فالإنس وبكل صراحة زفتوها! وآخرتها ممكن مثلما

قلت .. بيطردونا من جهنـم و ..

ويزداد انهياره وهو يتخيل أمامه فجيعته الكبرى كواقع فينفجر في صراخ رافعا يديه بتشنج:

- الظلمة! الكفرة!

الإنس المفترين!

بعدما تسببوا لنا بالطرد من الجنـة اليوم جايين

ينافسونا حتى في جهنم وناوين يطردونـا منها،!

لكن آه، وطسمليارين ترخ آه ...

ويصبح صراخه أشد قوة موازيا لشدة الصدمة والقهر الذي أجتاحه ولو لم يكن خفيا لأقتلع زبائن المقهى من الانس مع الأعمدة والأسقف، وأخذ غليان ما في جوفه يتطاير إلى خارجه وتحولت العبارات في كلامه إلى شيء من الخطرفة أو الهلوسة!

بينما زعنون مستمر في محاولات جادة في مواساته والتخفيف حتى أنه قال له:

– يا أخي! ما تظن مثلي .. إن التاريخ فيه غلط؟

وأهالنا من الصغر والنظام والإعلام حقنا كان

يظللنا؟

وان الحقيقة إن هؤلاء الناس هم الأبالسة الحقيقين

والصح! وان إحنا الإنس المساكين؟

ويضحك فرخعون بمرارة من هبل صديقه أو من اختلال عقله من الإحباط ولكن أقواله حقا تحفر في أعماقه أنفاقا غائرة فيجيب على التساؤل:

– بل الانس طلعوا هم السواهي والدواهي! لكن بيني

وبينك الآن عرفت ليه الشيبة الكبير حقنا أصبح في

قلق وهموم تخليه يفقد التركيز وما يحسن التصرف

في القضايا المصيرية! يا أخي أنا شايفه وكأنه

خائف على منصبه! حتى انه ومن شدة المخاوف

أتوقع أن يعلن حالة الطوارئ! ويمكن عن قريب..

ثم تلفت فيما حوله وخفض صوته هامسا:

- تصدق! صار ما ينام إلا قليل، قول شطب

النوم من جدول حياته!

وبصراحة! أقول من مراقبتي له انه ترك النوم

الطبيعي وصار وكأنه خايف من أحد!

يعني أي مودماني من الإنس مثلا يتشعبط عليه

وينتزع صولجان السلطة..

ويلقى نفسه عاطل وصايع ويصير مصيره في

النهاية ضايع! ومثلما قلت لا دنيا ولا آخرة .

وتسيد عليهما الصمت وساد حولهما السكون ووغابا في التفكير العميق، ثم أقترب فرخعون من زعنون وهمس في أذنه:

- أنـا! وبيني وبينك عندي اقتراح خطير للشيبة!

وأنـا متأكد من قرار تنفيـذه وبسرعة وتطبيقه على

كل عالم الجن وكل عـالم الأبالسة والعفـاريت

مادام هناك استمرار لطموحات هذه النوعيات من

الإنس بملاحقتنـا وتسعى جاهدة لسلب حقوقنا

وقطع رزقنـا وعيشنـا!

- والحقيقة هي انه خلاص! ما قدامه أي حل غير هذا

الحل الفرخعوني والوحيـد!

وزاد من خفض همساته لزيادة توتره ومخاوفه من الآذان والعيون المتلصصة والمتجسسة:

- لكن أنـا خايف منه، ومن الملك ومعشر الأبالسة

من المحافظيـن والرجعيين!

وإذا بصوت زعنون المتذمر والمحتج على الواقع وقادم المستقبل المظلم يرتفع ويبـدو أنه تأكد وآمن بصدق ما قيل بأنه كان يهذي أو متخلف العقل! والآن رأى الرعب في وجوه وحياة من آمن بهذا المصير المخيف وبالأخص

الملك وهذا الأمير والذي تعجب مما وصلت إليه حالته النفسية وأفكاره الفرخعونية المنهارة وربما تسهم في الانزلاق الخطير بمصير شعوبهم:

- حتى أنت يا .. أميري الفرخعون ركبتك الهموم؟

لا ! لا!

يعني أنا ما كنت مريض ولا غلطان!

وجاءكم اليوم كلامي؟ عرفتوا من هم الانس اللي

كانوا يلحسوا مخي وقبل البلوغ!

واعترفتوا اليوم! وقلتوا خلاص! ضاقت علينا!

وهو يضغط على كتف الفرخعون:

- عرفت ليه صارت شويات اللعنات اللي نجمعها

طول القرون وفي كل مواسم رمضان والحج، ما

عاد تغطي حتى مصاريف جحيم الدنيا؟

وإحنا اللي كنا ضامنين جحيم الآخرة يا خويي!

وهنا أخذ فرخعون يلف حول نفسه مرات، ومرات حول نفس المكان وهو يفرك يديه ويتوقف عند كل فكرة قبل أن تختفي ويندفع وكأنه يتقدم نحو أخرى تالية ركضا على أقدامه، وأخيرا توقف ليهتف بينما يفرقع بأصابعه:

– عشان كذا لازم الشيبة الإمبراطور يلحق بالفكر

ويعلن استسلامه!

أصابت زعنون دهشة مريعة مما سمع في آخر العبارة ليهتف بلا وعي أو في رعب:

– استسلام؟ عن أي استسلام تتكلم؟ وممن؟ من إبليس الأكبر!

ملك الأبالسة وعوالم الشياطين والجن العفاريت؟

لا يكون قصدك الاستسلام للإنس؟ فديتك، وضح!

لمن؟ للإنس؟ صرت انت المؤنسن! انت السنسن!

صحيح ما فيك مخ!

الآن وقد خرج الأمر من الكهوف المظلمة من بوابة الأسرار، وسيصبح غدا مكشوفا وعلى قارعة الطريق وللجميع، فلا وقت ولا مجال لإخفاء الرؤوس في الرمل فتوجه بكله نحو زعنون وبكل الثقة والوضوح وبدأ يجيب على ما سمع من أقواله:

– أنا أملك الحل الوحيد فعلا وأعلنه في منتهى

الصراحة!

وبكل الصدق والوضوح أريد الملك وجميع الأمة

أن تعلن الدخول في الإسلام!

أن يأمر كافة شعوب الشياطين والجن والعفاريت

بالإسلام! وأعني به الإسلام التام الحقيقي

والكامل الله.

ويركض زعنون محاولا إغلاق فم الفرخعون ليسكته عن هذا القول:

- أسكت! اسكت يا صديقي، أرجوك! قبل أن تسمعك

أذان الملك في أصغر جني ويقتلك شر قتلة و ..

ولكن الفرخعون لم يعطه الفرصة لإغلاق فمه وراح يضحك ويفسر حقيقة نواياه التي هي في خدمة قومه أولا وأخيرا وتنصب في خطوة جريئة لإنقاذهم ولضمان مستقبلهم في الحياة الآخرة، فأستمر يقول وفي سرور:

- بهذه الفكرة .. وعلى الأقل يجد له ولأولاده ولكل الشعب المكان المضمون الذي يلمهم يوم القيامة!

وبدأ زعنون يتلفت في كل جانب لا إراديا رعبا، لشعوره بالمصيبة القادمة مما زل به لسانه وشطح به عقله من خطير القول! ولكن فرخعون مازال فرحا بنتائجه وتأثيرات هذه الأفكار المذهلة التي أخذ نجاحها يتمدد في أعماقه وأحدث في مخه الكثير من التداعيات المتواصلة وأخذت تتناثر من فمه:

- نعم! وهذه فيها عبقرية الشياطين الحقيقية!

نعم، منقذة لك أنت يا فقير! ويا محروم الذكاء!

لأن الجنة يا غبي بتكون يومها شبه فارغة بعدما

غزا بني الإنسان جهنم وصار لمعظمهم هذا التفوق الإجرامي.

ويمسك بأذن زعنون ليدخل ما يقوله في عمقه:

- هم اليوم بدأوا بهجر كل الطرق المؤدية نحو

الجنة!

أي توجهوا بحبهم للشر وبعظيم ذنوبهم إلى

جهنم!!

حتى أحتلوا الآن معظمها بنتائج أفعالهم الشريرة

وتمترسوا بكل مكان فيها ..

وأراد أن يلتف بجسمه بعنف ناسيا أنه ما يزال يشد على أذن زعنون، ثم أخذ يضحك ضحكات هستيرية ويرتفع صوته وكأنه يهذي:

- صح، صح! يصير يومها ما عاد فيه أي محلات

فاضية في الآخرة إلا فين؟ فكر يا غبي؟

طبعا في الجنة بس!

وبتكون شبه فارغة من الإنس من بني آدم!

وأصاب الذعر زعنون في تصوره لهذا المصير والذي يراه مهين وخطر على عالم الجن والشياطين:

- أوف، أوف! يعني ما فيه قدامنا إلا هذا الحل!

ما فيه أمامنا إلا .. هذا المصير المريع؟

في الجنة؟

الجنة يا ظالم! الجنة يا فرخعون؟

مع ذهول ويأس زعنون ينتزع أذنه من يد فرخعون ويبتعد قليلا حتى يواجهه باحتقار وفي شماتة قائلا:

- خلاص! قفّلتها، أبتعد ؟

وبينما زعنون يتظاهر بالرعب أو امتلأ فعلا بالخوف وبالإحباط من تصور ذلك المصير المذل أخذ يطلق الكثير من البالونات لتخفيف الضغط وبصوت يملوه الأسى:

- أنا كنت حاس بكذا نهاية! ومع بداية هذا القرن

الإنسي المنحوس كل المؤشرات ما كانت تقول إلا

كذا! تقول الوقائع اليوم وبكره هو كذا!

ويبدو أن زعنون كان يراوغ منذ التقى بالفرخعون محتاطا عن الخبر الخطير الذي لم يسبق أن تطرقا اليه سابقا:

- ما أدري كيف أقول لك؟

أنا خايف كلامي يزعلك مع انه وصلني بالأمس

وهناك من لمح بهذه الوقائع وفي مجلس الملك!

أهتز فرخعون متفاجئا بهذه المعلومة ولكنه تماسك للتحقق منها ومن القائل قبل أي فعل وأشار بأن يكمل وأكمل:

- يا أخي الجميع حولوها الى طرفة ونكات وحمل

الأمر بكثير من التهكم!

وتحول صوته الى همس تحسبا وأكمل:

- قبل أن تسأل! هذا حدث في "المجلس الشيطاني

للتنبؤ والتخطيط المستقبلي" ..

ثم تسربت هذه النكات وانتشرت في جميع أجهزة

الإعلام الملكية والمعارضة...

ويسارع زعنون إلى فرخعون ليهمس في أذنه خبرا أعظم وأخطر:

- والخبر السري الأخطر أن هناك من يحمل مسئولية

هذه الكارثة للملك إبليس الأكبر نفسه!

فأنتفض فرخعون غضبا وراح يشد قرنيه ليكسرهما من القهر:

- والدي؟ أبويا؟ الشيبة الكبير؟

لا! لا! أكيد أفسدت الإنس عقول الجن! حتى

تجرؤوا على اتهام أبونا إبليس الكبير!

ملك عوالم الجن الحكيم!

نعم! لقد سحر بنو آدم قومنا!

سلبوا عقولهم وأنسنوهم!

دخلوا عقولنا المجرمين!

لحسوا عقول الأمة حتى كبارهم!

وبسوء النية قال زعنون غامزا ليخفف من تشنج وسخط الفرخعون والغرض منه العكس، أي التأجيج:

- انت فين والكون فين؟ قاعد تتسكع في القهوة مع

السمين وأمثاله انت ما عرفت أنهم لحسوا عقل

الشيبة قبلها؟

يأخذ الفرخعون يحجل ويوشك على السقوط وهو يستمع لدوي قذائف الزعنون في أعماقه:

- تبين هذا لما راح كبيرنا يستقدم الزمعليونات من

خبراء الإجرام والمبدعين في الشر من بني آدم،

وأغلب الخبراء من ناس حولنا أي من بلدان الشرق

الأوسط!

قال رايح يستثمر مجهود ما يملكه الطسمملياارات

من عمالتهم الماهرة طبعا في اقتراف المعاصي

وارتكاب أبشع جرائم القتل والإرهاب والحقيقة هذه

الخطوة ولدت الكثير من الشكوك في نوايا الملك.

وكأن هذه الفكرة وضعت نقاطا على كلمات مبهمة في ذهن فرخعون وهو يسمع دهاء زعنون في ذهول واستغراب:

- أهممم! علشان حنا ما نعرف ولا نتجرأ على قتل

قطة أو فار ! كيف بقدرتنا على قتل الآدميين!

وبذكاه فكر يجلب القادرين على تنفيذ كل اللي ما

كنا نقدر عليه، وطبعا ما فيه غيرهم! وهذي خطوة

ذكية من الملك!

لكن السلبيات في تطبيق هذه الخطة أفضع!

وبغيض:

- هو عرف إن الإنس وبالذات أهل الشرق الأوسط

تفوقوا وسيطروا على جميع برامج وقدرات الشر

اللي بها تمكنوا بسهولة من احتلال كل أرض الشياطين في الجحيم

هنا يصمت الفرخعون وعيناه تلتهبان وكانت قد وصلت حالته النفسية والعصبية إلى النقطة الأقرب للفناء انهيارا وأخذ يصرخ بلا وعي:

- لكن أبونا إبليس الأكبر لن يسكت على هذه التهم

الباطلة!

ولن ينتظر الانقلاب عليه. ولابد أنه عرف الآن وقد

فكر لهم في ألف حل! وبكل ما يخرسهم للأبد!

ويتراجع عن الجلوس وبحماس:

- ومن أجل هذا يجب أن ألحق عليه وأعرض

مشروعي هذا "خارطة الطريق إلى الجنة "!

وهو: انه بعد القرون من التخطيط والعمل وفشلنا

فيجب عليه الآن القبول وبشجاعة قرار الاستسلام!

وإعلان الإسلام لله

من أجل السلام لعالم الجن!

فنحصل على رضى الرب ويدخلنا الجنة شبه

الشاغرة في الحياة الأبدية ..

كانت هي لحظات قصيرة ولكنها أشد من عصيبة والصديقان منهمكان في التفكر والتدبر حتى أتضح لهم الهم الكبير والذي تجلى لهما بالمتلاحقات، وعند النهاية الحاسمة والمذهلة تنبّها وقد أحاطت بهم وفجأة قوات مدججة وفرق من البوليس الشيطاني الخاص!

حين تحققت الفرق وتثبتت من شخصية "الفرخعون" سارعوا بوضع القيود مباشرة بقدميه وفي يديه وعنقه، ثم تليت عليه صحيفة الاتهام والمنتهية أيضا بخلاصة الأحكام:

- **باسم وأمر "الشيبة والإمبراطور الأعظم لكامل**

الأمم الإبليسية الشيطانية الموحدة" فقد تم القبض

على هذا المنشق والمجرم الخطير "فرخعون"!

وهو ابنه من زوجته وهي الإمبراطورة "شحتاف"

ورقمها الزوجي ٩٠٠٠٥١ حيث وجدته عدالة الإمبراطور خائنا لوطنيته ولأمة الجن خيانة عظمى، كما وخلالها سعى إلى

جمع أرصدة هائلة وضخمة غير مشروعة من

اللعنات البشرية التي صعب تقديرها وتسببت هذه

الفعلة بنتائج عكسية على أمتنا ومقدراتها من

جفاف موارد اللعنات ونتج أيضا عنها غزو

واحتلال الإنس من بني الإنسان لجهنم واحتلالهم

لمعظمها مما سيعرض شعوب الجن للتشرد!

وسعى منها للتآمر على إخضاع الأمة للسقوط

مرغمين في أحضان الإسلام! بعد تسببه أولا في

حرمانهم من حقهم المشروع في العيش المطلق

بأمان في نعيم جهنم...

بعد مرور لحظات هامة من الهتافات للشعوب الشيطانية المبتهجة بهذا القرار الملكي يضيف البيان الخطير بقية التفاصيل:

- مع العلم بأنه كشف عن هذا بعد أن تم إلقاء القبض

على طسملياريين وترخ زمعلون من الزمر الشبابية

من المتطرفين والمدعين الإخلاص لمبادئ إبليس

الأكبر في إغوائهم وتجنيدهم لترخ طسملياريين

ووسق الزمعلونات من بنات وأبناء بني الإنسان

وتسببوا في تدفق طسم زمعلون ترخ وسق

طسملياريين من هؤلاء الإرهابيين المحتلين من

الإنس بعد تم تمكينهم من تقنيات ممارسة الشر حتى

تفوقوا فيها علينا!

وهذا بالتالي أدى إلى اختلال الموازين وتوجههم

بكثافة إلى جهنم واحتلالهم للممتلكات الشيطانية

الشرعية بالأساليب العدوانية الإنسية الخبيثة مما

أضاع حقوق شعوبنا وتضاؤل فرص معظم أبناء

الشعب بالحصول على أبسط الفرص في الحياة

الكريمة في نعيم جهنم!

والختام! لأن التحقيقات في هذه الجرائم تثبت تورط

فرخعون الابن الضال للملك المبجل وفي ضلوعه

مع جهات خارجية في سياسة أدت إلى الأضرار

بمصالح الأمة الشيطانية العليا. لذا!

ستنفّذ فيه عدالة الإمبراطور إبليس الأكبر، مع

ملاحقة أمثاله وإعدامهم في مجرى شواظ الثلوج

المتجمدة . ولكم تحيات الملك.

وبينما كانت الجنود تسحب "وتجرجر" فرخعون نحو حتفه كان صديقه الوفيّ يقف دامعا وغير مصدقا لما يحدث أمامه! وأصابه الفزع حين "طرطشت" عيناه بشيء يشبه الدموع!

فأوغل إصبعيه في أعماق مقلتيه ليوقف تدفقهما، خوفا من اتهامه باعتناق فكر الإنسية وضلوعه في البدع وفتن بني الإنسان. وبهذا يكون أغلق الستار على هذا الحدث على ارتفاع صوت صرخات الفرخعون وهي تدوي تشق فضاء السماء:

– مظلوم، مظلوم! أنا الشيطان المخلص، أنا من حملت رسالة أبويا إبليس الأكبر بكل أمانه وبكل تفاني!فأضللت معظم البشر أنتم على خطأ! فكروا!نعم! أنا مظلوم، مظلوم! ثم أنا ولد الشيبة إبليس ملك الجن

المعظم! أنتم مخطئون! فعلا! أنتم مخطئون! وأنا ولد الإمبراطور! أنا الأمير الفرخعون العظيم ...

***

عاشقتا الفجر

انه فجر جميل وغاية في الروعة كما كان بالأمس، ولن يقل عما كان عليه في الأسابيع الماضية، أو منذ حل على هذه الأرض أول أيام ربيع، وحدث حينها في موعده بأمر الله كفصل من الفصول الأربعة، ولكنه أستوطن هنا ثم لم يغادرها حتى اليوم وربما للأبد.

احتضنته بلدة الطائف، هذه البلدة الساحرة التي احتضنته يوما كأي بلاد أخرى ولكنه عشقها بالذات لأنها تفوقت في استقباله بكل الزينة وبكل فنون التبرج فوهبته هيبة البهاء فوق هبات الجمال، بحسن ما تنتقيه وببراعة من كل كسوة مرصعة من أحب ما تتباها به الطبيعة في مهرجانات الربيع على وجه الأرض من الحليّ، بأروع النقوش على الأرض والأشجار من ورود وأزهار كالجواهر وهي الأغنى بالأنواع والأجمل بالألوان والأشهى بالثمار والألذ في جزيرة العرب. كانت بارعة في اغواء واسعاد كل عين بما تراه في تلة أو وادي أو في رياض، بصفاء ينابيعها وجداولها الفضية وتراقص شلالاتها مع أمطارها المتساقطة كاللؤلؤ والألماس، لتكون وتبقى هي وفقط المعشوقة الأبدية، ومن تتغنى بها البلابل وتنشد العصافير بأن "فاتنة الجبال" هي "معشوقة الربيع" وليس سواها!

ولكن يبقى عشق الربيع لها هو الحب الحقيقي على الأرض حتى جعل منها داره وعنوان إقامته الدائمة وليبقى الربيع مبتهجا يانعا في كل الفصول الأربعة، فكان الربيع في كل فصل من هذه الفصول، وكل ربيع له سحره وخصوصية فريدة تجعله مميزا عن ربيع الفصل التالي، ففي فصل ربيعها الصيفي تجتاحها

جنون أشواق تتلهف لكل جديد، معها جديد العلاقات والجديد من الذكريات، فتمارس بموهبتها كل فنون الفتنة، لزيادة رصيدها، فلابد أن تجمع المئات بل عشرات الألوف من العشاق ليشهدوا لها بذلك، فالعاشق الجديد تلهب ليله ونهاره حتى لا ينسى في كل عام قادم أنه كان هنا وعليه أن يجدد الذكريات، أما من تربى على عشقها في ما ماضي فتذكرهم بمتعة كل ربيع في صيفهم الماضي وأن الليالي مازالت دافئة بالعواطف وهي بانتظارهم لتجدد لهم أجمل الذكرى حتى يحترقوا عشقا بها ولا يستطيعوا بعدها الفكاك.

وبحلول الربيع في فصل الخريف وفي فصل الشتاء فتلك ذروة الشاعرية والإحساس بالحب وبمطلق الحب فقط، فتهيم بها الأشعار وبإبداع العاشقين لترى من يْخضع لها روعة جمال الحروف والكلام ويشعل القلوب في الحب والهيام ومن يحسن الوصف لراحة الأرواح بالبهجة والمتعة ويحلق بالمخيلة مع نسمات الهواء الباردة والمنعشة في الليالي الطويلة تحت أضواء أعراس نجوم السماء المتألقة حتى تكاد ببريقها تخفي الليل نهارا، وحينها تدغدغ قلوبهم نفحات العطر القادمة بعبق زهور غابات السفوح مع الضباب المقيم ليله حولها حتى الصباح.

ثم يحل الربيع الأجمل في فصل الربيع، وهو الامتداد والنضج الكامل لربيع الشتاء، فتكون شمسه الذهبية أعجوبة في الصفاء والإشراق، وكأن تربة الأودية والتلاع والهضاب مغطاة بطبقة رقيقة من التبر والفضة البراقة على جوانب سفوح الجبال وعلى حواف الأشجار وجميع النباتات وما تحمله من

زهر وثمار، وتظل ترتدي وشاحها الذهبي والفضي الشفاف طيلة النهار، وتنتشر مع رفرفة أجنحة طيور الهدهد والبلابل وكل طير خفاق في الاحتفال الكبير بفصل العشاق مرسلة الدعوات لهم في الأرجاء بالغناء عبر الأثير.

أما نسمات الليل والفجر الباردة المعطرة فتشترك فيها جميع الفصول الربيعية الأربعة، وبلا استثناء، فتنسل في مواعيدها بالنزول من قمم الجبال الشاهقة تحمل رطوبة الضباب أو وبلورات الصقيع وتتخلل الغابات ونباتات السفوح الكثيفة وفي أرديتها النشوة بعد استحمامها بصفاء الينابيع المنعشة ورقصها تحت الشلالات المنتشية حتى تصل كالسكرى للأودية السفلية فتهمس للفجر ليستيقظ فيتململ مع لذة النعاس ويتثاءب بنفحات نسيم نشطة تحلق فوق الأشجار ثم تزحف في رقة على حبات الحصى وحبيبات الرمل فتغسلها بما تحمل من رطوبة الضباب أو بلورات الصقيع أثناء رحلة النزول، فتلاقي أحزمة من أشجار البساتين النائمة المترامية الأطراف وتحيط بالبلدة، فتتخللها برقة وهدوء بينما تدغدغ أوراقها وتداعب ما تحمل الأغصان من بصيلات زهور وبراعم وورود بلمسات حنونة فتغسل خدودها بالطل طاردة عنها النوم والنعاس لتفيق وتلاحق الوسن الذي ما يزال يحاول إكمال المبيت في أحداق العصافير.

على امتداد الأودية والسهول تتحرك جوانب الأشجار وأعاليها وتهش رؤوسها تحية لمقدم النسمات وتتغلغل تياراتها خلال فروعها قبل أن تتركها لتنتشر فوق مساحات الحقول الخضراء الشاسعة بين سنابل القمح وتتراقص في

مشاتل وحقول البرسيم وتنثر على الأزهار مما تحمل أجنحتها من بلورات الصقيع وحبات الندى الفضية، لتبدأ بالتوهج مع إطلالة وجه الفجر على الأوراق والورود والثمار فتنجذب نحوها الفراشات العاشقة وراقصات النحل لتحلق حولها في هيام وتحوم على كل منها بالعناق والقبلات حتى ترتوي من فيض كرمها بإكسير الصباح.

وأخيرا تتوج رحلة التخلل لهذه الجنائن بنفحات النسيم المعتادة بما حملت بتوجهها نحو البلدة، بكل أمتعتها الممتعة في رحلة جديدة حالمة تنشر في الطريق أقصى النشوة كهدايا من عبق عطور السفوح والأودية لتلطيف أجواء الصباح وهي تعلن مقدم الفجر للبلدة لتنهض من سباتها وتستقبل ثواني غسق اليوم الجديد قبل أن تنتشر فوقها وعلى كل الأرض أشعة الشروق الذهبية!

وهذه تكون أسعد اللحظات التي فتنت بها "سارة" وحرصت على احترام مواعيدها، وظلت لسنوات تحافظ على طقوسها وتقدس دقائق أسرار الحياة الإلهية فيها، فتقف بعد صلاة كل فجر على نافذتها المشرعة لتتلقى مع تباشيره كل انكسارات الضوء في الغسق ونراقب خلالها سحر توالد الضوء في زرقة السماء المتجددة وتدرج اخضرار الأشجار وتلاعبه بألوان أنواع الزهور وتملأ أثناء ذلك رئتيها بأريج نسمات الصباح وتمتع أذنيها بأناشيد طيور الفجر وجميعها رسائل للبشر محملة بأماني السعادة والحب وبالآمال.

اعتادت سارة في كل فجر أن تشهد هذه اللحظات الجميلة بعد أن تصلي صلاة الصبح وتشكر الرب المبدع لكل شيء، ثم تهرول آليا إلى نافذة غرفة

نومها في الدور العلوي، حيث تفتحها بشوق لتستقبل معشوقها وتلتقي به ككل يوم وفي مواعيدهما المحددة، ثم تودعه لتستقبل الشمس المشرقة بالحياة الجديدة في اليوم الجديد ولكن قبل ذلك لابد أن تعانق مشهد السماء في كل فجر، وكانت لا ترى منه إلا ما تراه في الجانب الأيمن من النافذة، في امتداد بصرها حتى قمم جبال شامخة من البعيد وهي ترتدي وشاحها الذهبي الدافئ، بينما حجب الجانب الأيسر من النافذة كثافة وعتمة ثقيلة تسد بقية صفحة السماء والأفق وهي لسدرة معمرة عملاقة ووارفة الأغصان المترامية في كل جانب حتى ألتصق بعضها بجانب جدار المبنى وتوشك أحد الأغصان أن تستضيف نفسها داخل غرفة سارة حيث كان يسرع في نموه مخططا لاقتحام نافذتها في أيام قادمة قريبة، ليكون هو ذلك الضيف الظريف أو شريكا مقيما معها، ولفت انتباهها هذه المرة ونظرت اليه وتبسمت ويبدو أنها فطنت لخبث نواياه، ومدت يدها لتصافح أناملها بعض وريقاته التي مازال يسيطر عليها النعاس وتتخفي في بقايا غلالة الفجر، فسمعت سارة صوتا خافتا كالهمس ولمحت تحرك أوراق الغصن القريبة من يدها وكأنها تيقظت وأيقظت بقية الأوراق وتنبه غصنا آخر في العمق، واذا بها تشاهد أغصان أخرى تهتز وتتحرك أخرى في توال رغم ظلمة الغسق في عمق السدرة المعتم، ثم بدأ يصلها ما يشبه همسات واهنة بدأت تتسرب في الصمت وفي تصاعد ملفت، ثم أخذ السكون يحزم أمتعته ويرحل بتعالي أصوات الهمس وتكرره من الجوانب الأخرى للشجرة، واذا بها تتوالى ترددداته وتتحول إلى

زقزقة تتصاعد في تتالي أقرب للتجانس فخمنت بأنها تحيات صباح متبادلة بين من أستيقظ من قاطني السدرة.

ومع ثواني رحيل بقايا الليل أخذت ترى كتل من الظلمة الرشيقة تتسلل في صمت من أشجار مجاورة وتختفي في جوف السدرة ويصعب رؤيتها في عمق العتمة ثم تنبهت بأنه كان وفي نفس الثواني أو ما يتلوها تخرج كتل مقاربة لنفس الحجم أو الكثافة وتنفصل عن السدرة في صمت أيضا وتتجه نحو شجرة قريبة خلف السدرة ثم ترى غمامة مذنبة الشكل تقبل وتندس في السدرة ومثلها تغادر كمذنب داكن يتحرك في صعود وهبوط حتى يختفي في شجرة التين المعمرة في حوش أبعد بمسافة عن السدرة وبالفعل رأت مذنبا داكنا وكأنه ترك مكانه للضيوف وأتجه لشجرة خلف السدرة وهكذا تدخل كتلة للسدرة قبل وصول القادمين وسارة ترقب بدهشة هذه التحركات المحيرة للرحلات المكوكية الصامتة المتبادلة والمستمرة بين الأشجار لدقائق وربما كانت تغادر وتعود نفس المجموعة لتنطلق بعدها وتعود أخرى في تزامن بدا وكأنه منسق بين الغيوم المتتالية، وفطنت أنه كانت تسبق هذه التحركات انتقالات مباغتة لا تكاد تلحظ لعصفور أو اثنين اشتبهت بأنها تقوم بجولات أو طلعات استكشافية سريعة قبل مغادرة أي مجموعة أو قبل وصول واستقبال أخرى وكأنها تجري تنسيق مسبق للإخلاء أو تجهيز المواقع للقادمين والمغادرين للسدرة وما حولها.

وفي دقائق تالية أصبحت تسمع عودة أصوات الزقزقة المتبادلة من جديد وبدأت بين عصفور قادم ليرد عليها بنغمات مشابهة عصفور مقيم وتستمر متقطعة بين العصفورين ثم يدخل بينهما ثالث فرابع ويتطور ويتضاعف العدد وتخرج وتدخل خلاله عصافير أخرى بتسارع منتظم أثناء العرض الصوتي، وتوقعت سارة بأن في هذا تناقل وتبادل معلومات بين العصافير وبتوجيهات معينة وإرشادات محددة ربما عن مصادر الرزق ومواقع الخطر والاستمتاع وغيرها، وترتفع كثافة وقوة الزقزقة وشعرت بتداخل بقية العصافير المستيقظة وطرحها للاستفسارات وأخرى تدفع بما لديها من الاقتراحات، وتصبح الأصوات وكأنها دخلت في خصومات وفوضى!

ولكن سارة أحست بأن الله وهب هذه الكائنات الصغيرة الرأس والحجم والخفيفة الوزن لتملك القدرة على استيعاب ما تريد في زوبعة الكم الهائج من المعلومات وتسجيل ما ترغب من بيانات مهمة من خلال هذه الفوضى وتتساءل وتجد من يستجيب ويجيب فورا، ورأت بأنه بالفعل حوار إيجابي متناغم بالنسبة لقدراتهم، ووجدت بأنه يتطور ويتحول إلى حوار متصاعد في نقاشاته المعلوماتية وتفاعلاته الجادة وتدور حول متطلبات حياتهم لهذا اليوم وأهم المتطلبات حول الجولات وآخر أخبار ومواعيد الشروق والغروب ومعلومات طقس اليوم والتغيرات المحتملة، وشعرت بعدها بأن الأغصان والفروع والأوراق بل الشجرة بكاملها أخذت تهتز فجأة ثم بعنف، وتنفجر فيها الزقزقة من كل مكان في فوضى عارمة! وأحست بأنه تم دخول

مجموعات كبيرة تشبه الغارات وتتعالى الزقزقة حتى يظن بأنها صوت واحد دون أي توقف أو تفاصيل كصوت بوق سيارة ضخم القوة ينطلق متصلا كما لاحظت ازدياد حركة التموج لجوانب السدرة والأغصان مع ولوج وخروج أفواج متتالية ومتواصلة من الغمام ومنها ما يؤلف ذيول طويلة وعريضة وكحملات الغزو قدمت من جميع الجهات ومن كل الأشجار، وعجت السدرة بالتغريد كزوابع عاصفة وبالتحركات العنيفة للأغصان مع توالي الجولات المتبادلة.

تبسمت سارة لأنه يبدو أن عاصفة الأصوات هذه ذكرتها بالنسخة العائلية المشابهة للتجمع النسوي المعتاد في بيتهم حين يجتمعن أمها وخالاتها ونسوة الجيران في زيارات أوقات العصر وحين تأتي الفترة التي يبدأن فيها بالنقاش وتدريجيا تنطلق أصوات حناجرهن بالجدل الثنائي فالخماسي ثم ينطلقن بصوت واحد وكل واحدة منهن تغرد فيه في جدال منفردة مع الجميع الذي يتجادل مع الجميع وفي وقت واحد وللجميع، فكل واحدة تتحدث الى من تظن أنها تنظر اليها ولكن ليس هناك من واحدة تصغي لأي متحدثة أبدا ، فالجميع يتحدث ويتحول المجلس إلى خلية نحل في طنين متواصل يتوقف ويتجدد فجائيا ثم وأخيرا يغادرن مبتسمات في سعادة ونشوة للعودة لبيوتهن وقد أفرغن ما أستطعن من المكبوتات.

وبعودتها لشئون السدرة وجدت أن فوضى الأصوات كما بدأت فجأة بالتصاعد أخذت أيضا بالانحسار وبالانخفاض التدريجي المتسارع حتى أنتهى

الى حالة صمت مطبق، وحين تخلصت أذناها من التأثر بقوة الأصوات العالية بدأت تسمع ما يشبه الهسهسة أو الهمسات بتغريد قصير خافت في فترات متباعدة وأدركت أن السدرة أفرغت تلك الجموع خلال الثورة الصوتية والتحركات الفوضوية ولم يتبق فيها سوى ما تسمعه فبما رجحت أنه رسائل موجهة خاصة ومتبادلة بين القلة المتبقية في السدرة، وفهمت أن ما يجري هو نوعيات من الحوار وظنت أنها رصدت فيه حالة تبادل تحية وتفجرت بعدها مشاعر أحست بأنها تحمل أقصى العواطف والحميمية التي يعيشها طرفان وكيف فضلا التخلف عن الجموع المغادرة والبقاء لحسم الأمور المعلقة بينهما في هذا الشأن مع خلو الأجواء في السدرة.

كما استطاعت سارة وبشكل غريب أن تميز ما توقعت أنه حوار يدور بين عاشقين صغيرين من العصافير يحترقان بلهيب الحب في موقعهما القصي والخفي في السدرة، ورصدت ما عللت أنه حوار يجرى بين عصفورتين وكيف فرضت عليهما برودة الجو وواجبات الحضانة البقاء في الأعشاش، وخلال هذا كانت تستمتع بصوت أنواع من ترانيم مغردة تشعر بأنها مشحونة بأحاسيس جياشة بالحب والعشق ويشارك فيها البقية بالتغني كأفراد وكورس لبعضهم، وتوقفت عن المتابعة لتضحك بشدة في أعماقها كاتمة صوتها بكفيها حتى لا تتسبب بإزعاج العصافير، والسبب دهشتها المخيفة من جنون أفكارها ومن شطحات عقلها في محاولاتها فهم وتفسير لغة الطيور، ووضعها للتصورات وسيناريو مفصل لكل حالة، وراحت تسأل نفسها إن كانت هي

بالنسبة لهم الآن ضيفة أم يرونها من أهل الدار أي السدرة أو يعتبرونها مخلوقة متطفلة؟

اكتشفت سارة من هذه التجربة مدى الأنانية والبلاهة عندما فوتت على نفسها رؤية هذه الحياة الجميلة والمستمرة والعامرة منذ سنوات في المدينة الصغيرة والمجاورة لغرفتها بل لصيقة بنافذة غرفتها، وكان كافيا أن تدير رأسها أو تلتفت قليلا ثم تعمق بصرها في عتمة السدرة لتتكشف لها التفاصيل وتستمتع بمشاهدة حياة ممتعة قائمة على الحب الفطري والتآلف الجماعي والتعاون بتفاني وعلى احترام الخصوصيات، والتي يمكن أن تعيشها كل يوم مع اللحظات التي تعيشها مع معشوقها رغم قصرها الزمني الا أن عظم مخزون متعتها فيه من العواطف ما يملأ الأسابيع والشهور من الزمن.

تأسفت أن فاتها جميع هذا وكانت تزخر بجوارها لسنوات وأعوام وتعتبر أقرب جارة لهم وهي أضاعت حقوق الجيرة فيهم، وفي هذه المستعمرة ما يؤكد بأنها قديمة وبأنها على الدوام مأهولة وقبل أن تولد سارة نفسها وحتى اليوم لا يزال يعيش فيها العشرات المضاعفة للمئات من الأسر الزوجية العصفورية بمكوناتها الرائعة.

وبينما هي غارقة في عتاب نفسها لاحظت حدوث تعديل طرأ في أسلوب تبادل التحيات بنغمات التغريد الرتيبة بين عصفورين عاشقين كانت ترصدهما، إذ تحول إلى لغة أخرى وبدأت بقيام العصفورة بحركات رفرفة خافتة وتنقل بقفزات سريعة من غصن لآخر وينتهي كل تحرك بسكون لثواني يبدأ فيها

العصفور العاشق بالرفرفة وبملاحقة عصفورته ويصلها في لحظة سكونها وتنشأ بينهما مشاهد عاطفية قصيرة وسريعة من التقارب والالتصاق بالأجنحة وبالرؤوس وتستمر أمامها الملاحقة بتفاصيلها في أرجاء السدرة، وما أعجب ساره جدا أنها أصبحت ترى في الأيام التالية مثل هذه الرفرفة القصيرة والقفز بين الأغصان والملاحقات من الذكور وفي تطابق للمشاهد وهي تحدث في السدرة ولكن بصورة جماعية في ثنائيات يشترك فيها كل زوج من العصافير وهذا عند اكتمال توافد جميع مستوطني السدرة باقتراب غروب الشمس والذي ينتهي بإعلان تمام الوصول وانتهاء جهود هذا اليوم بزقزقة جماعية متصلة يظن السامع بأنها فوضوية عبثية من جميع العصافير ولكن سارة ترى في هذا العكس حيث تشعر بسماعها كنداءات محددة وملاحظات تقوم بها مجموعات معينة للاستعلام عن كل فرد من المستوطنين لتأكيد وصولهم جميعا للسدرة بسلام ودون وجود مفقودين.

والغريب أن هذه الظاهرة العملية تحدث وبالتوافق الزمني أيضا وبنفس التصرفات بين جميع مستوطني الأشجار القريبة وفي أحواش البيوت المجاورة مثل شجرة التين المعمرة وشجرة الرمان وشجرة الاترنج الضخمة، وفي غضون هذا تحدث التحركات الجماعية والملاحقات الخافتة للطيور وما فيها من لقاءات الشوق الثنائية للأزواج والعشاق بعد الافتراق ليوم كامل وحفل بالبحث عن اللقمة، ويتفرغ فيها كل الأزواج من العصافير باغتنام هذه الفرصة

في البحث عن المعشوقة وملاحقتها باشتياق وقضاء لحظته الرومانسية قبل التوجه للأعشاش للاستقرار والنوم حتى فجر اليوم الجديد.

أصبحت هذه المشاهد في مشهد الفجر ويوميا من أمتع الأوقات لدى سارة، وحتى أنها فكرت منذ المشاهدة المؤثرة الأولى أن تبدأ محاولات جادة للتركيز فيما قد ترى وتسمع وبما يدور في حياة هذه العصافير، ولعلها تتوصل لفهم لغة الطير! وتتعرف على كل أسرارها من خلال الزخم الصوتي الذي سيلج أذيها وبالمقاربة بين التعبير الصوتي مع سلوكها وتصرفاتها العصفورية، فهي تشعر بداخلها بأنها مهيأة فطريا لذلك! من يدري؟

تزايد أملها وتأملها بأن تتمكن ذات يوم من النجاح وتتواصل مع هذه المخلوقات المحبوبة، والرقيقة والجميلة الشكل والعذبة الأصوات، فتتعرف على تفاصيل أسرارها وسر تغريدها في سعادة دائمة، وتأمل من خلال ما تعتقد بأنها تملك المواهب مع الملاحظة الدقيقة في المتابعة الموجهة وقدرة على استغلال تحليل المصادفات في محاولات جادة في البحث والتركيز بأي شتات أو شذوذ أو تطابق لتميز ما في أصوات العصافير من لغة تعبير في تصيد نوعية أصوات تغريدها الكثيرة والمتشابكة وترددها المتواصل في السدرة وفي أذنيها.

وزاد في اعتقادها وتوهمها بأنها نجحت رغم الصعوبة البالغة التي واجهتها في رصد ومتابعة صوت أحد هذه العصافير!

اذ شعرت وكانه يناضل في التحرر وعزل نفسه أو صوته عن ضجيج أصوات العصافير من حوله، وظل يكرر في إصرار وقوة على الانفراد بتميز عنهم بالتغريد بتنوع وأشكال من النغمات الساحرة التي أثارت إعجابها وفتنتها بهذه المعزوفات المبهرة، والتي وجدت فيها أنشودة طفل يشكو اليتم أو ابتهالات متعبد تختلط بنبرات بكاء ونشيج ثم يصدح في غناء محمّل بالآمال وبالدعاء وصداه يمتلئ بالرجاء!

سارعت تحاول تحديده وتحييده وحفظ ترددداته في أذنيها وذهنها من بين كم الطنين الهائل في أرجاء السدرة، علها تنجح في فك أشياء من الرموز، أو شفرة ما في عباراته ويمكن أن تجد مثلها تتردد في نوعية من الحوار ربما يكون ردا متبادلا مع أحد العصافير في السدرة، مثلا!

ولكنها تفشل في أن تجد صوتا محددا يتوافق أو يتجاوب مع ما يشدو به ذلك العصفور صاحب الصوت الشجي، ومع ما يغرد به من مشاعر وما يطرحه من العواطف، وظل الصوت مغردا وعلى نشازه أو تميزه عن بقية الموجات الصوتية أو المغردين، وكانت كلها تأخذ في حين ما بالانسجام والتآلف حتى التطابق في الأداء وفي الرتم والتناغم بينها لثواني ثم تنفرط إلى تشتت يشبه اللغط والعشوائية، وما أن توشك أن تتهيأ مناسبة جديدة للانتظام وتنجح لثواني حتى تعصف بها هيجاء أخرى تعم جميع السدرة، ولكنها تعود للتماثل بعد هدوء قصير أو في الصمت المفاجئ، وهذا ما أكد لسارة أن هذه الأصوات في تواؤم لا يلتزم به صاحب هذا الصوت النافر عنهم في المشاعر

وفي الأداء، بينما تجمعهم الفوضى والمساجلات المتصاعدة والتي يظن بأنها متنافرة ولكنها تظل تستمر نحو التناغم مع التطورات في العلو والتداخل حتى تصبح صوتا واحدا ينهمر مدويا في انسجامه وانتظامه، إلا أن سارة وخلال كل هذه المعمعة تعتقد وبكل يقين بأنها تسمع بأذنيها وبقلبها ذلك الصوت الشاكي الباكي المبتهل والحالم وبكل وضوح ومن نفس العصفور، وما زال يزقزق في نواحه وتوسله وهو يحلق في أجوائه الخاصة وحيدا، وشعرت في عمقها أيضا بأنه يؤكد لها بأنه لا يتحدث إلى أحد غيرها!

أحست بأنه يشكو إليها حاله وفي تواتر بهذا النغم الحزين، ويعلم بأنها تسمعه وبوضوح حتى في فوضى الزقزقة الجماعية وأن جميع أصوات العالم تختفي تماما ولا تسمع سواه!

هي أصبحت بحق أو في وهمها تسمع صوته يغرد محلقا ووحيدا ومنفردا وبكل الوضوح عن بقية أصوات كل العصافير المبتهجة بهذا الصباح. وبينما هي محلقة أيضا خلف صوته لم تدرك أن الصفاء والوضوح لم يكن إلا بسبب مغادرة عصافير السدرة لواجباتها المعتادة لطلب اللقمة للعيش، وأن الصمت يخيم على أرجاء السدرة وقد تلاشت منها كل الحركة وأي أصوات للرفرفة والتغريد واختفت رشاقة الألوان الداكنة السريعة بين الأغصان، وأن السكون يخنق تماما كل ضجيج السدرة وكل أنواع الصوت.

تبسمت ساخرة من أفكارها وخيالاتها وتمنت في حزن لو سمعت أو عرفت شيئا عن تفاصيل أو فحوى الرسالة الصوتية التي انطلقت على اثرها كل

الجموع وفي لحظة واحدة نحو مجهودها اليومي وترى أنها لاشك إشارة أزلية لعالم الطيور لتبدأ بواجبها الأزلي للبحث عن طعام الصغار الجائعة والمنتظرة في الأعشاش وعن ما يعينها على العيش والحياة! وهنا أحست هي بقرصة الجوع أيضا وأرادت أن تذعن للنداء متلهم للرحيل للبحث عن لقمة الإفطار واستدارت للتنفيذ وإذا بها تسمع ذلك الصوت المحزون والذي طنت لوهلة أنها توهمت به وكأنه يستوقفها؟

لم تصدق أذنيها وما سمعت! وأرادت أن تكمل استدارتها ساخرة من ظنونها إلا أن عينيها طفقت تفتش الأغصان والفراغات برغم أن صوت أنين العصفور مازال يكذب شكوكها وهو ينبعث من مكان ما ولا تراه، فلا يمكن أن تكذب الأذن ما تراه بالعين، ولهذا أتسعت أحداقها تفتيشا وتفرسا في أرجاء السدرة قبل أن تعود لتصديق شكوكها في عقلها، ولكنها شعرت بأن قلبها يحدثها ويقول لها بأنها تحس بما قرأت في رسائل الشكوى الخافتة وان ما تسمعه الآن حقيقة وهي رسائل ممتلئة بالعتب لمحاولتها التهرب وهو ما زال مستمر برسائله اليها، فتجمدت في مكانها وعادت تصغي لما يغرد به العصفور، والأعجب شعورها بأنها تفتح أغلفة ما تسمع وتفك شفراتها وتقرأ فيها أنين قلب يحترق من الحنين، وفي بكاء مرير وتوجع عاشق ظلمه العشق، وكانت تشعر في أعماقها بأنها تستطيع سماع كل ذلك منه نطقا – بطريقة ما– وبنقاء وتفهم!

بل أن الأنين الملتهب امتد مخترقا أضلعها بما يحمله من العذاب، وإذا بقلبها يصفعها ويحسسها بأنه يحترق، ويذكرها بنفس نوع النار وشدتها التي تلتهب في قلب العصفور!

بدا لها الآن أنها عرفت سر ما كانت تسمعه من عزف منفرد شجي وكان مواويلا مستجيرة، وفيها من الأشجان ما يمكن أن يذيب بأحزانه أقسى الصخور، بل وجدت فيه نداء استغاثة مستميت، وفجأة شعرت وبإيمان بأن قلبها هو من كان يرسل هذه الاستغاثة ويطلبها!

وأذهلها أن تشعر للحظة بأن عقلها الباطن هو من يرسل هذه النداءات لتخاطبها وبصوت كائن آخر من خارجها!

وبهنا اعتبرت نفسها ذكية وحاولت أن تتظاهر بأنها فهمت الرسالة الخفية التي وجهها قلبها الي وعيها وما أخفاه فيها بين السطور ولكنها أيضا أصبحت متأكدة تماما بأن العصفور حقيقة ووجود صوته حقيقة!

هو لم يرحل مع البقية بل قصد البقاء هنا وكأنه تعمد لحظات الانفراد هذه ربما كي يقول لها شيئا أو أشياء وليعلمها ما تريد معرفته من الأسرار وعما يشكو هو منه وعن آلامه وكل أسباب عذابه وبكائه!

إذا بها تسمع صوت العصفور يغرد بصفاء وبنفس الحزن والتألم ولكن ما أذهلها أنها لم تعد تسمع في تغريده النغمات الشجية في زقزقة الطيور فقط

وكالسابق بل تشعر بأنه أيضا يتحول في قلبها الى كلام مباشر وشديد الوضوح ومفهوما بلا أي صعوبة!

لا شك بأنها ظنت بأنها جنت! أو تحققت المعجزة لأمنيتها ونجحت في الهدف الذي خططت له في تعلم وفهم لغة الطير!

وإذا بها تشعر بأن تغريده أنطلق في أعماقها وتسمعه فعلا وهو يقول لها:

- نعم! أنا يا صديقتي العزيزة! وصلنني رسالة قلبك

وكانت مليئة بالألم والحس بالعذاب واليأس، وكانت بعد أول تغريده شجية زفرت بها أعماقي وكانت آسرة لقلبك، وبعدها عاد قلبك يستصرخ ويطلب الخلاص من تلك الأشياء التي التصقت بأعماقك واستقرت في القاع بعد إن فشلتي في التخلص منها، وكنت تظنين بأنك قادرة على التجاهل، لكن أحاسيس قلبك قوية لا تموت ولا يمكن تجاهلها فهذا وهم! لقد أحست حقا بل أدركت تماما بأنها أصبحت مخترقة، وبأن العصفور هو من كان أستدرجها ويفك شفراتها حتى أستطلع أعماق أعمق أسرارها!

تذكرت بأن تلك الأشياء التي أحست بقولها كانت تبحث عنها وهي موجودة حقا في قلبها، ومتوارية في أعماقها، ومبعثرة في أرجاء قفص صدرها، والذي تعرفه أيضا عن نفسها أنها كانت أكثر من شجاعة لتواجه هذا الموقف سواء كان بالحوار الذي ظهر من أعماقها كرسالة من القلب أو الصدق في حوار العصفور معها وهذا أمر مخيف يناقض الواقع!

لأن الحقيقة المرة أنها لم تكن شجاعة حقا، بل تعيش في أقسى وأقصى أعماق اليأس الذي توالد في قلبها المحطم على أثر قصة حب كانت ذات يوم سعيدة وتحولت فجأة إلى قاتلة بالإحباط وبالوحدة والكآبة، وان تمكنت من تمثيل دورها بالتجاهل وبعدم الاكتراث وبالمكابرة المزيفة بمقدرتها على نسيان كل شيء ودفنه للأبد، ولكن ما يدفن في أرض وتكون خصبة ومناسبة للنمو وللتضخم والتكاثر فشيء آخر ولا يمكن تجاهله، وغالبا اليائس البائس يحمل كل الجرأة للاندفاع في أي عمل ولكنه ليس بفعل الشجاعة بل كفعل انتحاري وهو أيضا تحت ضغط الفشل والإحباط وغالبا بلا وعي.

وبعد أن سمعت كلام العصفور في أعماقها تلبّسها الشك! وكادت أن تتعمق الريبة بعقلها، وقالت في نفسها أن كل ما أحست به الآن وسمعته من صوت كان يصدر من أعماقها، هي، وليس من عصفور على غصن سدرة.

عاد صوت العصفور ليجعلها تعيد حساباتها وليؤكد واقعها الذي تنكره بمقاومة عقلها الباطن، وما قوّي حقيقة وجود العصفور أنه عاد ليدخل إلى أعماقها كصوت أنثى! أي أنها عصفورة وهي تكمل للتوضيح:

– كما سبق وذكرت لك يا صديقتي بأنك انت من أتى للسدرة وبثت الي شكواها، وانت من كانت أعماقك تستنجد وتبحث عن حلول وما أدهشك أن الشكوى كانت على لساني أنا العصفورة!

هزها ما سمعته بعنف وأنها ترى العصفورة حقيقة وتشاهدها بعينيها وكانت تظنها في مكان بعيد من السدرة وإذا بها على الغصن القريب جدا من نافذتها ومنها! الا أنها مستترة بكثافة من الأوراق وبغصن متفرع يحجبها وكان صوتها يأتي ضعيفا وواهنا جدا ما جعل سارة تظن بأن العصفور في مكان بعيد ولكنها مازالت تريد أن تكذب أذنيها وتلقي ما يجري لها والآن على ما راق لها أن تعلله وتبسط في الأمر بسوء حالتها النفسية ومن تعرضها في عالم الواقع للكثير من الإجهاد المتراكم والمكبوت في قلبها نتيجة للمعاناة السابقة والطويلة، ولكن ما تراه الآن بعينيها بدأ يؤكد صدق ما تسمعه بأذنها وتشعر به فأثار تعجبها، وسألت نفسها بدهشة:

– عجبا! أيعقل أني علمت بكل هذا وتعلمت كل هذا؟ أحقا! أني استطعت تفهم مشاعر هذا العصفور وكلامه؟

تمنت لو أنها عرفت بوضوح الطريقة التي تنتقل فيها جميع مفردات هذه اللغة لتصل لمستوى البراعة في فهمها وتمكنها من التخاطب المباشر مع كائن حي غير بني الإنسان وألا لأحست بأنها أصبحت فعلا تهذي، وأن ما في أعماقها هو ما طفر إلى السطح ويجعلها تخاطب الشجر والطير والحجر!

وبرغم شكوكها فهي في الحقيقة تجد في داخلها شعورا قويا ينسف النقيض ويؤكد بأنها أصبحت إنسانة مختلفة جدا، وأنها الآن تمتلك موهبة متميزة وتقنية نادرة للتواصل مع تلك العصفورة وبلغة الطير وليس العكس، وهذه قدرة خاصة بها وليست للعصفورة، وهذه اللغة لا تحمل أحرف ومفردات

وعبارات نصية تلفظ وتكتب وتقرأ ويمكن للناس تعلمها ولها مهارات تعتمد على مقدرة اللسان بل هي انتقال وتبادل حسي بالمعاني المحددة ومباشرة بين الأرواح، تصدر من الروح للعقل الذي يقوم التفكير باستقبالها وتحويلها إلى لغة حوار.

ولكي تخلق في نفسها القناعة بهذا التصور فضلت أن تسمي هذه العملية باسم لغة التخيل الكيموفيزيائية وفيها تتحول الأحاسيس بالعقل إلى عناصر كيميائية وتنتقل منه لعقل الطرف الآخر بعملية فيزيائية أيضا داخلية وخارجية بتحولها لعناصر أثيرية تكون لغة تخاطب بين الأرواح! ويشترط نجاحها بين كائنين حيين وان كانا مختلفي التكوين كالإنسان والحيوان ولكن يجب أن تتوفر فيهما وبينهما –خواص مشتركة– لتستقبل وتفكك الشفرات المرسلة فيزيائيا وترسل الردود بنفس الطريقة!

وعند نضج هذه الأفكار التي تفاعلت وتعامل معها ذكاؤها الفطري راحت تضحك من الدهشة، وأخذت تنظر الى العصفورة في سعادة لتتأكد مما توصلت اليه فشعرت مباشرة بأنه يضحك معها على جنون تفكيرها وتفهمها لشطحات ذكائها ومقدرتها على تحليل الأمور ووضع التفسيرات المقنعة لها، ثم توقفت عن الضحك وزادت لتقنع نفسها بثبات صدق نتيجة تفكيرها وفكرت بما يكون رسالة موجهة مباشرة للعصفورة كسؤال تتوقع ردها أو تجاوبها:

– أتظنين أن فكرتي مسلية مثلي، أي مع جانب إيماني بوجود وسيلة تخاطب يمكن أن تنقل المشاعر بيننا، كإنسان وعصفورة جميلة الروح مثلك؟

لم تشعر بوصول أي إجابة أو تجاوب من العصفورة سوى نظراتها والالتفاتات المتنقلة يمنة ويسرة، وواجهت مأزقها الكبير من هذه النتيجة المحبطة والتي ستنسف وجود سلامة عقلها بالكامل لذا وجهت بعناد سؤالها للعصفورة ومباشرة وكشخصية حية موجودة وتتواصل معها بقدرة الهية تظن بوجودها وبامتلاكها أيضا وان لم تتعرف على طبيعتها:

– والان وبحق! ما سرك يا هذه العصفورة؟ برحيل الجميع وبقائك هنا في السدرة، وتواجدك أمامي ومباشرة على هذا الغصن؟ ثم ما حدث قبلها من تخاطر بيننا؟ وشعوري بما يجرى بيننا من تداخل خواطر والالتقاء في الأعماق وبآلام مشتركة هل ما يجري واقع حقيقي أم أنا مجنونة فعلا؟

مرت اللحظات شعرت بها ساعات طويلة وهما يتبادلان النظر وفي ابتسامات سارة العريضة الكثير والكثير من التساؤلات والحيرة والتصورات وبنتائج مربكة وبشجون أول تغريدة سمعتها منها حتى أصبحت الآن في مدى امتداد يدها وقد تكورت في ريشها كمقاومة طبيعية لبرودة الجو.

تنهدت في تعجب أن تظل الوسيلة واللغة ومقدرة التخاطب بين الإنسان والطير مستعصية ولا تتحقق سوى في الخيال أو الجنون، وهل يبقى هذا مطلقا؟ بأن تبقى أبواب التواصل مقفلة ومنيعة الاختراق وللأبد.

هي تعلم بالمعتقد بأن روح هذا الإنسان لا تملك الآلية أو الجهاز للاستقبال والإرسال للمشاعر ليستطيع الاختيار وحل شفرات التفاهم لتبادل المشاعر إلا مع نوعية الإنسان فقط، لذا لن تتمكن أبدا من تكوين علاقة جذب وألفة مع الكائنات تقوم على حوار لغوي مشترك لافتقادها عناصر هامة وهي الحاملة لتراكيب هذه الأبجديات التي يجب أن تتفاعل بعفوية ولا إراديا، وبما يحدث الارتياح وبناء العلاقة بينه وبين مخلوق آخر مهما اختلفت في التكوين، ومع هذا فهي تشعر وتعترف بأنها تؤمن تماما أيضا بأنه لابد من حدوث مثل هذا التواصل بين آحاد من هؤلاء الناس مع كائن معين كالحيوان حين يكتشفا معا بالرغبة أو بالصدفة نشؤ انجذاب بينهما ويجدان فيهما القدرة على تكوين علاقة ولغة بمستوى غير معقد من التفاهم بالصوت أو بالنظر أو بالإيحاء العقلي أو الروحي وبما يدعى توارد الخواطر، ويكونان صداقة مثالية وموثوقة تدوم بامتداد حياتهما وربما هما متناقضين في الطبيعة كانسان وحيوان ومن الصنف المفترس للإنسان، وقد يحدث العكس! أي ينشأ نفور وكراهية غير مفسرة ولأبعاد تصل للمواجهة وتمزيق اللحم وهرس العظم من حيوان عرف باللطف والوداعة؟

وأحيانا تنشأ العلاقة من طرف واحد ودون اعتراض من الآخر بل يقابلها باحترام مع انعدام وسيلة الحوار والتفاهم الذي يظل مغلقا.

وراحت تهمس لنفسها لا يعلم بالعلل ولا يفهم الرموز إلا شخص مؤهل، أي من نوعية خاصة كهذا العصفورة الملتهبة المشاعر، فهي استطاعت أن تلج

في قلبها وتكتشف فيه عطب احتراقه القديم بالحب، وستعرف ما يقاسيه من عذاب الاشتياق أو مدى تألمه من الفراق وما فيه من قسوة وشدة حرقة الحنين، حتى وان كانت هذه العصفورة تقف أمامها في صمت، ولكن القلوب تتحرك وتشعر بأحاسيس بعضها، وربما كانت على بعد!

فالمشاعر تنتقل مغلفة وتفتح فقط لمن يحمل مفتاح شفرتها

والقادر على فكها وبالحس الفوري بقوة ما فيها من المشاعر، ثم تتكشف بينهما كل خطوط التواصل، وفي أي وقت ومن أي مسافة!

ولهذا سألت نفسها وأجابت باستغراب:

– نعم! وربما هناك أرواح لها مقدرة على نقل وحمل مشاعرها والأخبار لذات ما أو مجموعة من الذوات الحية، وفي أي مكان ما من الكون.

لقد فهمت سبب تواجدها الساعة أمام السدرة وروحها بلا وعي تطلق شكوها في سكون الفجر لتجد من يملك شفرة أحاسيسها، ولكنه كان معلولا مثلها، وتفهمت أخيرا كيف ولماذا اتخذت العصفورة قرارها بالتوقف عن الشكوى بالصمت!

كما وعرفت كيف توصلت العصفورة إلى قناعاتها في قرار رغبتها بالرحيل، ولكن! هذه المرة ليس بحثا عن مصير الحبيب المفقود! بل للبحث عن لقمة اليوم، وعن "القوت"، حتى أن سارة في لحظات صمت العصفورة شعرت بأنها بدأت تحس بمثل ذلك الإحساس تماما وهي ترى العصفورة تتململ في

وقوفها على الغصن وتكثر الالتفات والنظر في كل اتجاه لتتهرب ولتخفي أنين توجعها من قرصات الجوع!

فابتسمت سارة وهي ترفع للعصفورة يدها وتحرك أطراف أصابعها بإشارات للوداع، لأنها مقتنعة ومؤيدة لها وسعيدة بسبب توصلها لقرارها هذا بالرحيل.

وفرت أيضل من عينيها ورغما عنها دمعات ساخنة على وجنتيها بينما ترى العصفورة أخذت تفرد جناحيها بالوداع وانطلقت مرفرفة وكأنها تتعثر لتتعلم الطيران.

عرفت سارة أنها مازالت تعاني شدة الانكسار ولكنها متأكدة أيضا بأنها لن تبقى أسيرة للوحدة وللانطواء، والعيش بحريق الماضي للأبد بلل ستبدأ الحياة من جديد وحتما ستجد فيها حبا جديدا وستبني عشا جديدا وتنعم بالسعادة، وكانت سمعت أو قرأت أو أحست بمضمون آخر رسائلها –الكيموفيزيائية– المشفرة وهي تقول:

– صديقتي! أحببتك! وان الحب عظيم حقا، وجميل!

وما دام يشعرك بالغنى وبالسعادة وأنت فقير! ولكنه والحق يصبح تعسا، متى شعر الانسان بأنه فقير من الحب، أو من أي محبوب !وبئس لمن يسمح للموت بأن يقهره بالجوع! والحب وحده لا يأتي اليك بالطعام ولا يشبعك! ولن يمنع عنك فتك قرصات الجوع المؤلمة! وألا فسيكون هذا الحب هو ومنه وفيه النهاية المميتة.

ثم شاهدتها تتململ وتكثر من الالتفاتات السريعة فشعرت بأنها بدأ تقلق لسبب ما ولم تستطع اكتشافه أو الاختراق لهذا العمق ولكنها رأتها تعود وتقف مرفرفة أمام النفذة غير بعيدة عنها وكأنها يبتسم وهي تقول ما أحست به كنصيحة صديقة عاشقة بحق الصديقة:

– حاذري محبوبتي! أن يضيع العمر في الحنين والبكاء.وكفاكِ تعاسة بالتفكير بتداعيات الماضي وآلام الفراق فتهلكي وحيدة .. فريسة للأوهام وللأشواق الكاذبة! فالحس بالجوع هو حقيقي وهو الأقوى، وألمه هو الأصدق وآلامه هي الغالبة والأبقى من كل آلام العشق!وهو من سيفتك ويفتت أحشاء العاشق المكتئب وسينجو من ينهض في طلب القوت. وداعا!

لقد شاهدت سارة أثر هذا في نفسها وحياتها وكانت على وشك أن تفتك بها الوحدة والانطواء وبأشر نهاية، ورأته بعينيها قبل رحيل العصفورة حيث كاد يقتلها عشقها لزوجها المفقود والحنين اليه بالموت جوعا، لولا أن قررت أن تركل الماضي تحت السدرة وترفرف نحو الأفق المشرق للبحث عن حياة جديدة

ورأتها تبتعد بتثاقل صعودا وهبوطا وأجنحتها بالكاد تحملها حتى توارت في أعماق البعيد! فعرفت لماذا تركتها العصفورة؟

وماذا عليها أن تقرر هي لتبدأ البحث عن حياتها من جديد وستجد السعادة وتعيش عمرها الجديد. رأت لماذا تركت هذه السدرة الرحبة الظليلة،

والوارفة بأغصان حملت كل ذكرياتها تصارع الكآبة والوحدة ورحلت بلا دمع ولا شكوى وكابحة أشواق القلب ومبتعدة عن آلام الماضي، ولكن ! للبحث عن وجبة الإفطار وعرفت بأنها كانت تعني بطالبي القوت " أفراخها الصغار".

في مصادفة لقاء سارة بالعصفورة وانطلاق شكواهما المتوجعة وما جرى بعدها، تبين لها حقيقة ما كانت تحاول الصراخ به أو وأدته في العتمة وترقبه كل فجر في لا وعيها.

وتذكرت بوضوح كيف ولماذا كانت تجاهد ليلها وتقفز من فراشها تطرد ذيول النوم عن عينيها ليخرج ما في أعماقها من ظلمته في يقظتها، فتركض، في كل فجر، مبتعدة عن مرقدها نحو بصيص ضوء النافذة!

لتشاهد بعينيها كيف تغتال الشمس المشرقة ظلمات الليل أو تطردها وبقسوة؟ لعلها تجد في هذا بعض العزاء، لقلبها. وهي الآن تدرك الآن لماذا عشقت الفجر؟ ولماذا أحبت البحث عن كل فجر؟

وأحبت رؤية هلاك كل ظلام أو عتمة؟

لأن فيه شروق نور يتألق كل يوم وتتفتح فيه كل الآمال، بعد أن غمرتها ظلمات الليل وطمس بالسواد كل الدروب، فالأقدام والعيون لا تحب السير إلا في النور، وتأكدت بأنها لن تحب ولن تطيق العيش يوما في الجانب المظلم! ولا في أي جانب معتم، فهو كحسها في عيشها في الجانب الكئيب من كل الحياة!

ولكنها كانت تحتاج لوجود الأمل الحي الممتلئ بالإصرار، وفي عمق قلبها، وهو ما كان يدفعها بلا شعور حين تفتح عينيها لفتح النافذة لمعشوقها الفجر ليخرجا الى النور، مما حاصرها وخالط ليلتها من غم وكوابيس، من نحيب أمانيها الميتة، وهروب الآمال بالعجز والخذلان، فتهرع من موتها الليلي في آخر ذيول ظلمته راكضة بغير وعي لرؤية ابتسامة الفجر، لتشهد فيه مولد النور، يتدفق إلى جوفها مع نسماته الحالمة بكل جديد!

كما فهمت من المجمل الأهم!

أنها متى أرادت رؤية النور، فيتوجب عليها أولا، ومنذ هذا الفجر وتفتح عينيها أن تسعى فورا لفتح جميع النوافذ، على كل مغلق! وعن كل ظلمة في أعماقها، وفي عقلها وفكرها، وكل ما يحيط بها، لتدخل فيه واليه كل ألوان الأضواء.

فدخولها إلى عقلها ووصوله الى قلبها سيبدد كل ظلمات اليأس والشكوك والإحباط وتسعد الروح بما سيصنع فيها بهاء الأنوار من روائع في فنون مزج وبهرجة الألوان.

*****

مولود من جديد

خطوات للمجهول

تنبهت فجأة لصوت خافت في لحن متراقص كالثعبان في انسياب ناعم يتلوى مع نسمات ليلة باردة وفي مد وجزر لموجات أثير تتسلل في الظلام الحالك المنتشر من حولي، وأحسست بأنها ترانيم تحمل أنين عاشق يشكو الضيم وقلبه في رجاء أن تصل شكواه مسامع النجوم فتواسيه بنبضاتها الخافقة وتشعره فقط بأنها هناك ترثي له وترسل عزاءها يتوهج بالضياء، وبان هناك في الكون البعيد من يشاركه نجواه وما يعيشه من شقاء وأحزان، كما شعرت بأن هذا الصوت يحمل العزاء لي ولقلبي وقد خرج في هذا السكون متحررا ينشد معاناتي ليواسيني.

شاء التحليق في فضاء من النقاء وأنطلق بالدعاء مستجيرا بمن أبدع كل هذه الخلفيات الرائعة لأجرام السماء، وشككت لوهلة بأنه صوت أعماقي وربما سرقها الهواء وتغنى بها إنسان من البشر بعد أن وصاغها وأبدع بهذا اللحن وربما أراد به الإحسان الي ويسمع آلامي لكل العالم بهذا الغناء، فأختار للحن أبرع عازف مبدع وكأنهم لا ينتمون إلى أجناس بشر على وجه الأرض والا فكيف قرأوا وصاغوا خفي بكائي. توقد انتباهي ليؤكد بأنها أصداء غناء حقيقي تسري وتنتشر وليست أنين نازف من بين ضلوعي وليست أنغام لمزامير داوود كانت تاهت وتسقط الآن من أعالي الأجواء.

لم تكن سوى صوت جهاز مذياع عشق هذا السكون وراح يحلق ويسبح بجنون حقده ليبدد كل متاهات الفراغ، فنهضت واقفا ببقية من طاقة لأستطلع حقيقة هذا الحدث، إن كان حقا يخصني كما سبق وتصورت أم أنا إنسان فعلي وحولي مخلوقات من مثلي تعيش في هذا الخلاء البعيد، والمؤكد بأنها أيضا تعاني مثلي طالما نحن نعيش معا ويقضمنا صقيع نفس المكان المظلم المقفر. بالكاد حملتني أقدامي لأقف والآلام بحق شديدة توشك أن تتصلب منها عضلاتي أو تشل، ولكن دافعي أقوى من كل الأوجاع وبي لهفة هي الأشد لسماع صوت أي كائن أو متحدث بصوت بشري حتى وان كان عبر جهاز، فأنا أهيم حتى الآن بوحدتي في أدغال كآبتي في مكان مجهول تماما بالنسبة لي لأني ابتعدت كثيرا عن أقرب مركز تجمع لبني الإنسان منذ تركت المدينة خلفي منذ عدة ساعات أجهلها ولا شك طويلة.

المدينة التي خرجت عنها أو أخرجت منها، أو بأي منهما سيان فليس في قلبي ما يحرك مشاعري للنظر خلفي حيث الطريق التي سلكتها أو حيث هي رغم ما يضاعف آلام نفسي باستفحال هجمات شعوري بالوحدة وبتأكد وجود عزلتي عن أي أحياء أو أي مخلوقات مرئية بصفة عامة، مع تجدد ما كنت أسمعه بداخلي قبل غروب شمس الأمس حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل وقرب إطلالة شمس هذا اليوم الجديد، ولم تكن سوى دوي متواصل خرج بكل صوت جال في صدري بما تتحدث به أعماقي وبما يطرأ وان ثواني بأفكاري منذ بعد ظهيرة الأمس حيث تركت لكل خلية حريتها بالتحدث عن

كل خفاياها وكنت لا أبالي بما يفرغ بل لم أكن أعيه أو يعنيني بينما تشق أقدامي طريقها في الظلمة الي مجهول.

وصلت بي الى هذا المكان، وخلال الطريق انهمرت كل الأشجان وفاضت أعمق الأحزان وتفتحت المحاجر متفجرة بفيضانات الشوق والحنين المختزنة كأمانات مات أصحابها وتركتها تنزف مني جميع ما فيها بدموع تجرف كل ما في طريقها مع النحيب والأنين حتى غسلت عني كل ذرات حب لكل من على أرض المدينة ولأصغر ذرة فيها أو عليها حتى جفت كل الأوان التي أمسيت طوال ليلي أستحلبها، وببلوغي هذا المكان كنت قد قذفت وحطمت آخر وعاء كان مترعا فلم يعد في خلايا جسدي أي شيء مما حوى بالأمس من الأحاسيس.

نعم! تبددت وتلاشت، ونضب كل ما تراكم في جوانحي خلال سنوات السجن الطويلة والتي كان مساء الأمس آخر يوم في محكوميتي.

فيه بدأت أول خطوة بقدمي على أرض وتربة غير تربة السجن ولتستمر بعدها في السير بين الأبواب المغلقة والقلوب المقفلة حتى وجدتني الآن أجلس في هذا القفر المظلم، وحيدا أبحث عن مجرد صوت لأي كائن كان.

الليل يشتد برودة والسكون ثقيل والظلمة حالكة مخيفة لذا بذلت بما تبقى لدي من عزيمة للوقوف واستدرت بتوجعي للبحث عن مصدر الصوت القادم من الخلف، وحاولت التعمق بالنظر بعيني المرهقة مما مضى والمثقلة بالسهر

وبالتعب في الخلفية المتصلة مع ما يحيط بي من الظلام في كل الأرجاء، فلاح في العمق كتلة ضخمة من السواد، بدت بعيدة وخمنت بأنها بنيان كبير لموقع ما تحت الإنشاء، كما تبين بتحسن نظري وأنه ليس بالبعيد جدا، وظهر لي ما حوله من ملحقات وجدران غير مكتملة وأكوام مختلفة ومتفرقة من الركام وما يشبه الحفريات المختلفة الأحجام وان كانت المشاهد كلها معتمة جدا لا يمكن تمييزها لتبدو كأطلال مباني خلفتها حرب شرسة، وكان بصري يجول باحثا بنشاط وأنا أردد في نفسي أهلا بك يا صوت الإنسان، ومرحبا بك حتى وان أتت هذه المشاركة من صوت مذياع!

احتواني صمتي مع صمت الليل منصتا لهذا الصوت الذي تضاءل وأختفى وتملكني خدر شامل مفاجئ وكأني تعرضت لعضة سام سريعة المفعول، وأخذ يعود بي الوعي مع عودة الصوت في مد تدريجي ويزداد قوة وكأنه يغني صارخا مما يعاني، وببذل الجهد في مطاردة تذبذب وتمعج الصوت لأحدد موقعه قبل حدوث الجزر التالي، وان راق لي الشعور بأعماقي بما يشكو منه المغني وتزايد آلامه وأحزانه من بعد المحبوب وهجرانه، فأسعدني أن يكون لي شريك بشقائي في ليلتي الحالكة، فهو يشكو الألم وهروب النوم من عينيه ونزيف الدمع من مقلتيه ويردد ذلك بحرقة مع نشوة في هذا العذاب وكأنه يعلم بأني هنا أصغي له أو هناك آذان وقلوب تشاركه الأحزان وأنا أسمع ترديده تلك العبارة كثيرا وبوضوح:

أتألم على جمر النار ..

ثم اذا بالصوت يتلاشى واللحن ببقية الكلام مع انحسار

تدفق أثير الموجة الأفعواني ليذوب ويختفي في طيات الظلام والغريب ظل وحيه يتردد في أعماقي التي وجد في فراغاتها ما يجذب صدق تلك الأحاسيس لأمتلئ بعذوبتها دون حاجة لمعرفة بقية ونوع الكلام، ثم تنازعت بي تناقضاتي بحثا عن التزاوج والألفة، بين عذوبة الموسيقى والظلمة والبرودة القارسة وعضة الجوع وبالغ الإعياء مع قوة عواصف وأمواج تندفع متلاطمة من محيطات يأسي وبؤسي وتمزق نفسي في أعاصير مجنونة يتطاير فيها عقلي وتشتت أفكاري كرذاذ وأبخرة غاضبة وهي تحاول أن تنطلق هاربة كالسحب على ألا تعود الى محيط الأرض، ولعلها تظل تطفو بعيدا وتبقى في عناق أبدي بين كواكب السماء.

فأنا لا أجد ما تواءم مع ما في روحي والأماني إلا ما أشعر به في صوت ذلك الإنسان المكلوم بترديده لآلامه ومعاناته طوال الليل، وقلبي مستودع يتضخم بكل أنواع أحاسيس الألم والندم والتحسر على ضياع كل الآمال وفقدي للأمان وأحلام شيدتها في سنوات محنتي بين جدران السجن وتوقعتها تنتظرني وخرجت ولم أجدها وليس في جسدي قلب قادر على تحمل قوة لطمات التحدي وخيبة الرجاء.

ليس في داخلي سوى كلمات صارخة بشكواي عن خيانة الزمن، وببساطة ما يمكن أن يتجنى به إنسان هذا الزمان على أي انسان، حين اغتالني وانتزع كل أثر لي في قلوب من أحببت وقبر بداخلي أو معي جميعهم مع كل ما حملت

لهم وأنتزع منهم كل ما حملوه عني من صور وأحداث ملئت بمعاني الحب الوفاء، لقد قتل خنقا كل ما كنت أحمله لهم في قلبي من حب وولاء لأعظم وأنبل المشاعر، وذلك أثار في نفسي وفي قلبي ثورة محيط الغضب القاني تتفجر وتتأجج فيه براكين أحزاني، وتصول في أعماقي صرخاتي وتخرج تعاستي من فمي فحيحا ينعى قادم أيامي.

صاحبتني أثناء سيري في خطواتي بآهات من التوجع من آلام الغدر الذي يفاجئني خطوة بخطوة لأكتشف مع النهاية الحقيقة المؤلمة بأني فعلا فقدت كل من أحببت مع أعظم ما أحببت! حتى وجدتني هذه الساعة المظلمة أقعي على هذا الرصيف البارد البعيد وحيدا في ظلمة وصقيع يحتل داخلي وما حولي.

أتيت سيرا وأنا لا أسمع سوى خشخشة النعال على الأرض ويخفيه حينا صوت فحيح الريح العابرة حول صيوان أذني وحينا يطبق صمت غريب فأسمع خفقات قلبي كقرع الطبول تتسارع وتتباطأ في أيقاع نشاز بما يرضى مخيلة مضطربة.

ولكن ما أسمعه الآن هو صوت مع جزء آخر مني يقول لا يهم إن كان المسموع مؤلما أو حزينا أو باكيا ما دام يصرخ شاكيا فهو مثلي ومني، وفيه من ناحية أخرى ما يخفف عن قلبي شيئا من الأحزان لأنه وصلني وما أتى الي عبر الظلمة والمسافة إلا لنصبح شركاء هذا الليل والأحزان، وليذكرني بأني لست الوحيد وكم مثلنا يعاني في ليلتنا هذه من إنسان، وأدخل في قلبي

السعادة حين أكد لي بأني لست الوحيد وهناك حتما الكثير ممن يعاني مثلي في كل مكان من هذا العالم، وربما هم أسوأ حالا وبأشد مما يمر بي، حتى أني في لحظة ما ابتسمت لمن عرف وأكتشف هذا في القديم وقالها وعلى طريقته في الحكم "الموت مع الجماعة رحمة"!

وقفت مستطلعا ولم أر في الظلام سوى الظلمة وأشباح المباني وعتمة الركام واللحن مازال ينساب في مد وجزر، فعدت أقلب وجهي وبصري للتفتيش حولي فتأكدت أن ما يحيط بي هو مساحات لا متناهية من البراري السوداء وفي خلاء حقيقي من البشر، وأقف في المكان الذي وصلت اليه في قمة الإنهاك من السير الطويل في جوع وعطش وبرد شديد، فجلست منهارا متوسطا مساحة خراسانية صغيرة مربعة الشكل ومرتفعة تشبه الرصيف، وتحاذي امتداد الطريق الأسفلتي الضيق المتآكل من عوامل الطبيعة والذي كنت بدأت السير على بداياته بعد خروجي من البلدة أو التي أخرجتني منها، ورأيته وكأنه تجاوزني ليختفي متعمقا بالتدرج ليندمج سواده في امتداد بقية الظلمة الدامسة في اتجاهه نحو المجهول الذي لا أراه ولا أعرفه.

أسندت ظهري على عمود الإنارة وهو الوحيد المضيء على امتداد الطريق، وفي أعلاه مصباح رديء النور في قلب هذه الصحراء المترامية التي كنت أسير باتجاهها وفيها منذ بدأت أقدامي رحلتها في هذا التيه المظلم، ووضعت حقيبة سفري كعازل بيني وبرودة الرصيف وهي كيس بلاستيكي محشو ببعض الملابس التي خرجت بها من السجن وتعتبر كل ممتلكاتي في الدنيا بأكملها،

وتقرفصت أضم أرجلي لصدري وحشرت بينهما ذراعي وظل ما تبقى مع ظهري ملكا لتيارات هواء ثلجية البرودة تحوم من كافة الجهات.

لا أعرف كيف غفوت وكم استغرق هذا حتى استيقظت على ذك الصوت الشجي.

شحذت بصري ليخترق أستار مساحات الظلام ليكتشف ما يختفي فيها ولكنه كليل جدا من شدة التعب والجوع والعطش ويكاد في البدء لا يتجاوز ذيول ضوء ذلك المصباح الباهت والغريب الوجود وحيدا في هذا المحيط الصحراوي، ما جعلني أتخيل وضعه في هذا العمق والموقع أنه وضع ليكون علامة حدودية تبين نهاية وبداية حدود المدينة مع عالم الصحراء وما خلفها، أو كمنارة إرشاد صحراوية لسفن الصحراء من القوافل والسيارات المسافرة بالقادمين ليلا من عمق الصحراء، فتكون علامة دلالية على اتجاه مكان وجود المدينة وتشبه أيضا وتماما عمل المنارة البحرية المرشدة للسفن الماخرة من عمق البحار والمحيطات، فموقع المصباح الغريب بالفعل يمثل النهاية لحدود المدنية والبداية الفعلية للتوغل في عمق محيط الرمال نحو قلب صحراء مترامية ربما تحتل تلك المساحة التي تغطي ربع جزيرة العرب، فيصبح المصباح بقصد أو بغير قصد منارة بالبشارة للقادمين أو منارة الهداية للتائهين كما اهتديت به حتى جلست على قاعدته الخرسانية الباردة.

وحين راوحت ببصري بحثا عن مصدر الصوت بين ما يظهر من أشباح الظلام العملاقة وكتل الركام تبين لي ربما كتلة مظلمة مكعبة ربما من

الأخشاب ثم بدت كمواد بناء مغطاة بما يحفظها بأشرعة وقطع من الخشب وأخيرا أتضح لي مالم أتوقع فأصبح كغرفة صغيرة قليلة الارتفاع يصعب تمييزها ولم أكن في حال تسمح بأن ألاحظ هذه الأشياء عند قدومي للمكان وهي من ضمن العتمة والخلفية السوداء وما حولها من كتل الظلام، وبعد تمحيص تأكدت بأنها حجرة صغيرة جدا بنيت من تراصف طوب البناء دون أي ملاط أو مونة بين الصفوف ومكنني بالتعمق من أن أرى على طرف جانب الجدار المواجه ما أظن بأنه فتحة مناسبة لتكون مدخلا للحجرة أسدل عليها ستارة لغلقها ربما بقايا بطانية أو بساط قديم، كما ظهر ما يسقفها من ركام منوع من ألواح الخشب ومخلفات متخلفة عن مواد البناء، فاستنتجت من هذا ما دل على أنها بنيت سكنا خاصا بحارس الموقع الذي في أقرب احتمال أنه مشروع لبناء محطة وقود مع نقطة لراحة مسافري الصحراء وان لم يكن فمنشأة إدارية لخدمات حكومية تختص بهذه الأماكن النائية.

وبزيادة التفحص ظهر لنظري انتشار الكثير من الشقوق والفتحات كان يتسرب منها بصيص أضواء ضعيفة متذبذبة وكأن شعلتها تترنح تعبا من السهر الطويل، مما يؤكد بأنه يصدر عن فانوس كادح يكافح للبقاء بآخر قطرات الكيروسين التي يبتل بها الفتيل في أحشائه.

ما إن أنتهى التركيز البصري بالتحقق مما تواجد في هذه المسافة والبقعة جاء الصوت زاحفا من جديد كاحتفال بهذه النهاية والإنجاز، ومع أنه يمتد

لعدد من الثواني في كل جولة من المد والجزر إلا أنني تمكنت قبل اختفائه النهائي بفناء الإرسال أو فناء الطاقة من سماع أخر ما توصلت اليه بوضوح:

يا ليت ويا ليت ويا ليت .. ويا ليتني عمري ما حبيت.

لم تكن بي حاجة للقسم بأن الصوت كان يصدر من حيث يتسرب بصيص الفانوس حيث طال اختفاء اللحن بتوقف إرسال الجهاز لسبب ما، وما هي إلا دقائق تالية حتى انتحر ضوء الفانوس بفنائه أيضا لتوقف إمداده بمقومات حياته، وتلك خيانة أخرى جديدة أتعرض لها بتخلي أيضا الشريك الذي أحببته في بهيم هذا الليل!

لهذا انطلقت من فمهي آهة مريعة من اليأس والتوجع امتدادا لصرخة الإحباط العميقة وحسرة مريرة بفقدي لعزيز في هذه الليلة الشتوية المظلمة بالبؤس وفي تجدد وحدتي القاتلة في مكان ما على طريق للمجهول.

وخرجت مني غمغمة لا ارادية:

ويا ليت ويا ليت ويا ليت ويا ليتني ما ولدت ولا جيت

ولكن صوتي أرعبني وهو يخرج بما يتردد في أعماقي مما أجفلني لغرابة الصوت وظننت بأنه لشخص أو شيء آخر ولكن طول صمتي مع جفاف فمي وحلقي من العطش الشديد ضخم نبراتي وتفاعلت في الفراغ والسكون، وإذا بهذه الهزة تجعلني أنتشي وأبلغ حدا من الانتباه والنباهة خرج بها ذهني عن السوداوية والضبابية التي كانت تحيط بي طوال المساء وبقايا الليل وأدرك

الحقيقة عن كيفية وسبب وجودي في هذا المكان، ولماذا أنا أجلس على رصيف بارد كبرودة كل ما يحيط بي من هواء وأرض وسماء.

بدأت أعي شيئا فشيئا لماذا وكيف وصلت فعلا مشيا على أقدامي لهذا المكان البعيد عن البلدة، وتكومت متعبا عطشا جائعا على رصيف تحت مصباح وحيد على طريق ظللت أسير فيها لساعات طويلة لا أعلمها وأنا أتعقب انحناءات سواده رغم حلكة اسوداد حياتي مع ليلتي حيث بات يمتد ويصعد بي وينحدر، وكنت على علم بأني أخرج عن البلدة واني ابتعد عنها كثيرا، وألتفت أول وآخر مرة ورأيت أضواءها تلفظ حياتها رويدا رويدا حتى خمد معظمها، ثم كيف جثمت فوقها الظلمة التي أتت لتمتد وترتبط مع الدياجير من حولي ثم أمامي تسابقني نحو عمق الصحراء، ولم أعرف بأني كنت أسير في طريق قديم قد مات قبل زمن وسبت كالبلدة، ولا شك أمست مهجورة وربما أصبحت طريقا غير مرغوبة للسير والسفر فيها وغالبا تتوقف تماما مع الليل.

إذ كنت أسير أصيخ السمع وأكثر الالتفات خلفي في رجاء وبكثير من الدعاء أن يلوح ضوء لأي شاحنة نحوي في وجهتي فلم يظهر منها شيء من كلا الاتجاهين، ولم تنتهي معاناتي في المشي، وتعرضت مرات ومرات لتشنجات مؤلمة وتصلب أرجلي لأن تجربة المشي بعد السجن أعواما بأي مسافات تعتبر معدومة تماما لذا فهي تجربة جديدة مؤلمة لخبرة قديمة توقفت منذ سنوات.

وتزداد المعاناة مع اشتداد برودة الجو ومع عدم تزودي عند خروجي بأي مآكل أو بما أشرب، وهذا لفكرة الرحيل الطارئة بجنون عن البلدة، ثم جهلي بالكثير عن كل التطورات في البلدة وحركتها كان وراء عدم توقعي بتوقف حركة السيارات والخدمات على هذه الطريق وكان توغلي فيه بسبب الآمال الكاذبة، فحدث عدم التقائي أو رؤيتي أثناء السير لأي نوع وشكل لوجود حيوي بمحطات وقود أو مقاهي أو أي أثر لحياة إنسان من القرية أو البادية حتى لاح بعد ساعات ما استبشرت به وأيقنت بالنجاة، وكان لأنوار مصابيح تتكاثر حينا وتقترب حينا ولكني لا أصل، ولخوفي من انطفاء النور كنت أركض أغلب الأوقات وكأن المسافة لا تقصر، وكانت المسافات اليه من السراب تتمدد وتقصر وتطول وأنا أزيد إصرارا، وحين وصلت وجدت هذا المصباح فقط،.

كان لابد وأن انهار حين لم أجد شيئا مما كنت أأمل ولا حتى قطرة واحدة من الماء، وأصبح هذا المصباح يقينا ليس إلا كفاصلة على السطر ثم تابع السير.

اذا بجميع أطرافي تتصلب وتهجم فوقي ظلمة ثقيلة ولاحظت اتجاه جسمي للسقوط وكانت آخر لحظة من الشعور وغاب وعيي، وفقدت كل إحساس حتى بكيفية سقوطي على الأرض، وأفقت بعد وقت أجهله وزحفت حتى بلغت هذا الرصيف ولم تلمح عيناي أي إنسان ولا سيارات ولا مسافرين ولا سبع جائع ينهي معاناتي، فما حول هذه النقطة من الضوء ما هو إلا محيط

ممتد من الغموض وظلمة سوداء، حتى الوصول للغد غير مضمون ولا للمستقبل فالطريق ما يزال مجهول، ثم تمكنت من الجلوس على حقيبة ملابسي وأن أكوم وأكور وأزم جسمي لأحمي صدري من شدة البرد القارس وأحسست لمرات بأني أموت وأفقد الوعي من الجوع والعطش ثم أغرق في نوبات أشبه بالنوم من السهر والإعياء وشدة التعب!

وأفقت في مرة وشعرت بأني أتوسد الكيس البلاستيك منكمشا على الرصيف البارد متدثرا تيارات هوائية جليدية تحت نجوم السماء وهي التي أسهمت بتخدير ما تحت الجلد من أحاسيس في كل ما يظهر مني وتصل اليه عدا ذاكرتي وعقلي، فهما اللذان يذهبان لوقت ويعودا بسلام وأفيق وكأنهما يغيبان ليكتسبا النشاط ويجدا بعض الأمان نتيجة لتوقف بقية أعضاء جسدي وتوفر منها طاقة تعيدهما للعمل، فأتمسك بهما لأغرق معهما فيما أجد من رحلات تذكر للذكريات لعلي أعي بنفسي وحالي وكيف وصلت إلى هذا المكان المجهول، ويتصاعد نشاط ذهني بعون من الله وينمو بعض الإدراك وأحمد لله كثيرا وأطلب العون حتى وصلت بي الذاكرة إلى البدايات لأهم ساعات في حياتي بالأمس واتضحت أشياء مما قبلها وما بعدها!

كان لابد أن أتشبث بهذا الوعي وأسلك تياره ذهنيا لأستعيد الحياة ولأحافظ على استمرارها في جسدي وبما

يسمح به الله لي.

كانت العودة بتذكر الأيام الأخيرة حتى آخر اللحظات من نهاية سنوات السجن الطويلة وبعض ما عشت فيها من ثوان بجوارحي، وتمكنت من التأكد من وجود رأسي بتحسسه للكيس الذي يتوسد عليه بتحريك طفيف لجانبه وصدغي الملامس للكيس فكان كالشاهد على مصداقية حواسي وهذا ما زاد أيقاظ الذاكرة بشكل أفضل، فذكرني متى وكيف كنت أحشر فيه وعلى عجل ما لدي من ملابس وجميعها ثوبان وعدد أصابع الكف من قطع الملابس النظيفة والمتسخة مع شيء من الحاجيات وهذا كل ما أملكه في الحياة، وحشوتها دون أي ترتيب بعد سماعي منادي السجن يطلق الأسماء كالمعتاد من مكبر صوت يعاني دوما أمراضه المزمنة وتشبه –الخناق– السعال الديكي والمصحوب بأشد أمراض السعال والسل الصدري المزمن، ولم أكن أعتاد أن ألقي اليه بالا إذ ليس لي من أحد أرجو زيارته ولكن مساهمات المساجين المعتادة أيضا على تكرار ما يعلن حتى أنها تخفي صوت المكبر وهي ترتفع بالهتاف، وطال بها النداء على الاسم الذي يطرق أذني بلا مبالات مني ولم أشعر بأي علاقة لي به حتى تمكنت بعد فترة طويلة من الاستيعاب بأنه يشبه اسمي! والمضحك أنه جاء حين أردت أن أبادر بالنداء على صاحب الاسم الأصم أو النائم كمساهمة مع المساجين وفجأة توقفت جامدا بعد نطقي لأكثر حروفه، لتنتفض كل عظامي ويخفق قلبي بعنف شديد، رغم تشككي من ما أسمع، ثم أدركت بقية المعلومات المصاحبة للنداء بأن أكون جاهزا لإطلاق سراحي الوشيك!

وفي سرعة ضجت العنابر القريبة من زنزانتي بأصوات المساجين فيها وتركضوا نحوي وتقاطروا وأحاطت بي جموع وأفراد توجه الي التهاني وتبارك لي لحظتي العظيمة بخروجي بحياتي بلا قيود خارج ما أحاط بنا من القيود والأسوار.

كلهم قالوا ورددوا وبعبارات مختلفة كثيرة ولكن معانيها متشابهة أو تحمل معنا واحدا، كترانيم طقوس محددة ومحفوظة:

– مبروك، مبروك، كفـّارة إن شاء الله!

– من كفر عن ذنبه كمن لا ذنب له!

– أنت دفعت الثمن وأكـثر، وهذا يعني أنك مولود هذا اليوم!

– إنها أسعد أيامك كأسعد مولود وفي أول يوم جديد في

حياة جديدة!

المولود من جديد

وحينها مرت بذاكرتي لحظات عادت وأعادتني الي تفاصيل لعدة سنوات كنت أعيشها في عائلة كبيرة داخل جدران السجن، وكيف كانت عائلتي تحيط بي بقلوبها الأكبر من أحجامها حتى تحضنني بكل جوارحها، وكانوا هم الأهل والإخوة والعزوة وأكثر، وكانوا الأصدقاء حقا على امتداد الست سنوات التي أمضيتها من عمري ومرت بقوة ستة عقود من التلاحم والمحبة الخاصة وحسن العشرة وان بدت بتواجدي معهم وبينهم كرحلة قصيرة في عدة أشهر، وبتذكري للحظاتها الآن ما يجعلني أشعر بالوحدة وبالتوحش وبالانقباض وعند الاستعادة لتفاصيلها أجد أسعد الأوقات التي انتهت كثواني فورا بعد سماعي أصوات النداء وما رافقها وتلاها من تدفق بكل مشاعر السعادة في احتفالاتهم بهذه المناسبة التي لا يفوقها سوى مشاعر حزني لفراقهم القسري ولم يهونه سوى رؤيتي لشدة سعادتهم بانعتاقي من الأسر تتراقص في أعينهم الدامعة!

أنا بالحقيقة لم أشعر في أعماقي بمظاهر هذه البهجة التي تحوم بيننا أبدا لأن هناك مشاهد لصور متزامنة في الأعماق تعرض ما هو مناقض، حيث كنت أحس بهم يتجمعون ليقدموا لي العزاء في فقدي لهم!

تجمع عزاء لفقدي صدق الود وصفاء المحبة والمشاعر وللحظات وأيام من السعادة الحقيقية في صداقتهم الأخوية، لهذا أكرر الاعتراف بفقدي للكثير من إخوتي الذين لم يكونوا أشقاء لأب أو لأم ولا إخوة رضاع، بل تآخينا في رحم كبير جمعنا في الشقاء والهموم وتقبلنا جميعا مهما بلغت أعمارنا وتنافرت ألواننا وعظمت مصائبنا وجرائمنا وآوانا وبلا مقابل وكان حافظا لنا بينما يقدم لنا كل حوائجنا من الغذاء والمنام مع الكثير من أنواع الرعاية. وكان أغلبنا يتشارك في سوء المصير وفي المستقبل البائس.

أنا لا أعم من عاش في ذلك الرحم بل أخص من كانوا حولي وعرفتهم بتفاصيل حياتهم وعرفوا كل شيء عني وقرب بيننا التراحم والتعاطف وجرت فيما بيننا الألفة في محبة صادقة، فكانوا على الدوام الى جواري في المكان وبقربي في المحن والمصاب، وشركاء النوم والأكل والشرب وفي تقاسم المشاعر والمواساة في الأحزان وفي الأفراح ولحظات السعادة وتقاسمناها بيننا وبالتساوي، نعم كانت مشاعر لأخوة حقيقية، لم أعرفها حقا في ما مضى وربما كان السجن ومن يسكنه يخيفني قبل دخولي ثم بسوء ظروفي أيضا وجدت فيه ربما أكثر من واحدة من حسنات حظوظي التي ا أسهمت في تحملي لسنوات بؤسي ثم لم أجد مثلها ولا أوفى منها لاحقا في خارج السجن، وبالأخص ممن عاشرتهم وأدعوا يوما بأنهم الأخوة ولكنهم تنصلوا منها ومني فورا بعد دخولي فيه ثم وأخيرا لم أجد أحد منهم أيضا بعد خروجي، بل تنكروا لي ولكل أمشاعر الأخوة أو القربى وأنكروني، وهذا ما

كانت تتنبأ به أحاسيسي مسبقا خلال سنوات السجن وما ينتظرني أثناء وبعد خروجي من السجن.

كنت خائفا من حدوث ما توقعته في الوقت الذي كان إخواني السجناء يحتفلون فرحا لي بالخروج!

لما لا! وشراكتنا الأخوية كانت صادقة فعلا، وتلاحمنا في الألم والهم والسعادة وفي منامنا وطعامنا طوال رحلة طويلة دامت ست سنوات كنا نعيشها وبكل ثوانيها جنبا لجنب، متقاسمين بيننا الفرحة الصغيرة قبل الكبيرة ونمسح مدامع بعضنا، ونفتح صدور بعضنا وقلوبنا ونبوح بما فيها ونزيح منها وعنها ما فيها من الألم والهموم لتخفيف متاعبنا، ونزيل كل حيرة وقلق في أنفسنا وأفكارنا ونبدد ما نجده من المتاعب في حمل الأسرار.

ففي السجن وبعد إغلاق السجانين للأبواب نقوم بفتح كل ما هو مغلق فينا وبيننا من الأبواب وهي كثيرة تلك الأبواب، فخلف الكثير منها أحاسيس وأفكار وأوهام بما كان سيفضي للجحيم أو للجنون أو لسعادة أو تعاسة أبدية، وفيها أيضا ركام من الذكريات والخيالات وأنفاق من الشكوك وبحيرات من دموع الأحزان والتي أهمها هي أصغرها وربما فيها أبواب المستقبل، وربما لا يمكن ولوجها أو السير فيها للظلمة الحالكة وما تخفيه من كمائن الخوف والقلق وفقد الثقة، فتصبح ظلمة طريق منتهي للمجهول.

في الليالي قد نتمكن من إطفاء كل سعير وجحيم مع تسكين آلامه ولكن ندوب الجراح المزمنة تظل مكشوفة أو مفتوحة وتنزف بخفاء ولا تلتئم، وها أنا ذا الآن في لحظة وعي جديدة خلال غيبوبة الصقيع حيث أتذكر بكل وضوح لحظات خروجي النهائي من سجن البلدة في مساء الأمس وأنا أحمل معي الجثث التي توفيت بلا عزاء أو قتلت خلال مدة سجني، وأحسست قدماي تبدأ بأول خطوة لتجاوز بوابة السجن الصغير داخلا لأقيم في السجن الكبير إقامتي الطويلة، وخلالها ستظل الجثث في جوفي طوال سنوات الإقامة الجديدة وستتصاعد روائح جيفها في صدري وتزكم أنفي وتختنق أنفاسي وترهق قلبي كل ليل، والقتيلات هن فتيات كانت عشق بعد جاوزت الطفولة وفقدتهن جميعا بعد أول خطوة دخلت فيها لأقضي فترة إقامتي القصيرة في السجن الصغير وكنت أطلق عليهن أسماء عزيزة على قلبي وهن: حياة وأمل وأماني وأحلام ووفاء وسعادة.

قبرت أمواتي بين أضلعي وأنا أعيش في قبري بين جدران السجن الذي أصبحت بابه بالأمس مفتوحة لأنفذ الي حياة جديدة ولكن إن عاشت بها أمال وأماني تبعث بي أحلام جديدة حين أجد أمامي الوفاء لمحبة وعشرة قديمة في أبواب مفتوحة مرحبة بي في سعادة!

ولكن هذا معاكس لتوقعاتي التي حذرتني ألا أتفاءل كثيرا بآمال خاسرة وسأجد تلك الأبواب مغلقة مع يقين بأنها قد تبقى أمامي وأبدا مقفلة.

مع كل هذا أخرجت من السجن، وخرجت وأنا أحمل ما في جوفي رفات موتاي وبيدي حقيبة ملابسي في كيس صغير وتجاوزت آخر الأبواب وكان الباب الرئيس الخارجي للسجن، وعلمت بالسؤال أن الساعة تشير إلى أربعين دقيقة بعد الثانية من ظهر اليوم الاثنين، وهو التوقيت الذي أغلق الحراس فيه بوابة السجن.

نعم! قالوا وقيل لي الكثير ممن أحتفل بي في تلك الظهيرة وأكثرهم تمنى لي بالسعادة ونصحوني بأن أبدأ بها منذ اليوم وألا أترك أو أفوت ثانية واحدة منها خارج السجن وألا أعود اليه مرة أخرى، لأني سوف أتنفس هواء الحرية الثمينة والنقي والعليل فور خروجي حيث سيستقبلني لأول مرة على أول عتبة خارج باب السجن، ولكن!

يا ليتهم قالوا لي ما هو حق فعلا وأكثر صدقا!

لأنه بعد أن دخل جوف صدري ذلك الهواءً بساعات قليلة حتى وجدته يتحول الى هواءِ خانق أأتنفس، وأجاذبه بصعوبة لتحوله لهواء ثقيل جدا لم أستطع أن أملأ منه رئتي بسهولة، فأنفاسي أمست قصيرة ومتسارعة فهل هذا سيكون حقا الجزء الأقل صعوبة في القادم عما تخيلت من سوء المصير المحتمل في الجانب المتشائم، والذي كنت أتوقعه طوال الست سنوات ولن يحصل شيء في الجانب المتفائل الذي منح أكبر المساحات المشجعة، لأن الأحداث التالية خلال البضع ساعات التالية وجدتها تفوق كل تصورات السوء بما يتجاوز كل خيالاتي المسبقة، حتى فقدت كل احتياطاتي واستعداداتي

البديلة التي كنت أعددتها منذ سنين لبعث الآمال ولمواجهة الصعوبات في حياتي الجديدة لتتبعثر كل المخططات وبالفعل تبددت جميع حساباتي لأشعر بنفسي وكأني حقا ولدت للتو وقذفت في أقصى فضاء لأحلق بلا وزن، وفي فراغ لا متناهي!

هذا ما حدث في الحقيقة وبعد لحظات قصيرة من استقرار قدماي على أرض الحرية التي ذكروها، إذ اختطفتني أقدامي في سرعة دون وعي ولا إرادة لأشق طرقي في مسافة طويلة وخالية من المباني قيل أن أسير مخترقا شوارع جديدة مسفلتة ومنسقة بالأشجار مع أعمدة إضاءة على جوانبها مبان حديثة عالية وقصور جميلة في حارات جديدة لم يسبق لي مشاهدتها في مدينة شككت بمعرفتها حتى وصلت لبيوت عرفت بأنها كانت تقع على مشارف البلدة فأيقنت بقوة الطفرة الحضارية التي اجتاحتها خلال ست سنوات فقط، والتي سحقت المزارع المحيطة بها ومعظم بيوت الطين والأزقة الترابية وقد تحولت الى شوارع أحتلت المتاجر والدكاكين جوانبها حتى تحولت الى مدينة أجهلها، وانطلقت فيها باتجاه ما كان مشارف البلدة على الجانب الآخر وما توقعت بأنه الحي الذي أعرفه أكثر من نفسي، وحين وصلت ووقفت في نهاية الطريق الذي سلكت فيه حتى وجدته أغلق أمامي مساره بالمباني السكنية وأصبح المسار يتجه يمينا أو يسارا، في نقطة تقاطع، واحتوتني الحيرة في مفصل الطرق هذا، ورحت أدير رأسي يمينا وشمالا وعيناي تحملقان وفي أقصى اتساع تفتشان عن أي أثر لما أتيت أبحث عنه، وأخيرا رأيت ما أدهشني وزاد

من حيرتي، ولجأت للاستنجاد بذاكرتي القوية وقامت باستدعاء صور المخطط القديم للحارة، فأنا أجزم باستحالة حمل جميع بيوت الحارة وترحيلها لجانب آخر من المدينة الجديدة، وأنا قطعت فعلا أميالا متخطيا العشرات من الشوارع قبل أن أنتهي في هذا التقاطع ولكني متأكد وفي يقين بأني تجاوزت أحياء جديدة وسرت في الاتجاه الصحيح نحو حارتي وان هذا التقاطع حقيقي، ولكن التفاصيل من حولي جميعها غير حقيقية أبدا، وشعرت من هذه النتيجة بعاصفة من التوتر وبتحركات غير طبيعية بجميع خلايا أطرافي وأن التنمل أجتاح فروة رأسي وكأن ما فيها من الشعر أستقام وتمكن من رفع طاقيتي فقمت بإعادة التحكيم بلف الغترة بقوة لتحيط بكامل رأسي دائريا وربما هي عادة ولكنها الآن للقيام بتماسك جمجمتي من التحركات الطارئة والغريبة!

وطال الوقوف بي وأنا أتفحص الاتجاهين يمنة ويسرة وما على جانبيهما من مبان أحتل أسفلهما صفوف متصلة من المتاجر المكتظة بمختلف الخدمات وأنواع البضائع تتكدس أمامها وخلف واجهات زجاجية وأزاغ عيني ما كتب على الواجهات من عبارات مختلفة الأحجام والألوان كمسمى معارض ومحلات وبقالات وخدمات منوعة للبيع والصيانة وبما لا يمكن حصره من لوحات مضيئة مع المئات من العلامات وعبارات الدعاية، فأربكني بشدة ما أصبحت أشاهده وأصابني بالدوار، فكل ما كنت أراه في زقاق حارتنا ثلاثة دكانين متباعدة للبقالة وفرن وحيد ومخبز تميس وفوال وهذه كلها خاصة

بمعظم الحارة ولا يعبر فيه الكثير من السيارات سوى عربات الكارو مع حمولتها في الذهاب والإياب بالخضار وبعض الفواكه وبالبرسيم والأعلاف من البساتين المنتشرة خلف الحارة، فشعرت بالتفاعلات الشديدة والمتنوعة في شرايين دمي ورأسي لتستفز ذهني وتحفز أفكاري لتنشط بالتفتيش والبحث في كل مخزونات الذاكرة علها تحمل حلا أو تصورات مع استخدام الإضافة أو القص واللصق للصور والمشاهدات وأجد ما يكون فيه الإلهام لاكتشاف حقيقة موقعي ولتفسير ما أنا فيه سيما وأن عقل الإنسان بارع في مهارات التخيل وعمليات الإزالة والحجب والإضافة للعناصر لاستعادة أو استخراج ما أختفى أو فقد ولتوضيح ما تلاشى وإعادة تصور وجود ما كان قائما في مكان ما وأندثر من على وجه الأرض.

عدت للتفكير من هذه النقطة والتي جعلتها الزاوية التي أقف فيها في نهاية الشارع الطويل والشارع القاطع له في اتجاهين. واستعرضت بدقة جميع تفاصيل ما يحيط بهذه الزاوية لتظهر إمكانات ما صنع الله في هذا العقل، لأني أزلت من ذهني تماما ما خطر لي بأني دخلت بلدة أخرى أو كوكب آخر، وأني ما أزال في بلدتي القديمة وفي حارتي بدون أدنى شك ولكن ما حدث أن وحش الحضارة هجم عليها والتهمها وهضم ما كان عليها من بيوت طينية مع أزقتها ومزارعها، وبأني أتيت لنفس المكان بهدي الله كما زرع في طيور الحمام والطيور المهاجرة من قدرة في تحديد المواقع، فقام عقلي باستعادة بوصلتي القديمة للبلدة وللحارة في الزمن والساعة التي غادرت فيها

وقام بالتصور وإعادة بناء جميع مكوناتها والمعالم الطبيعة فيها بالأثر الرجعي باسترداد المخزون، ومن الزاوية والنقطة المحددة ظهر لي أن ما أراه ليس هو المكان ظاهريا وليس شيء منه في هذا الزمان ولكن بمقدرات العقل تجلت في مخيلتي كل ما كان من الأرض والبيوت بطبيعتها وجغرافيتها حتى من عليها وما كان فوقها إذ لاح أمام مخيلتي ما اعتادت عيناي أن تراه في كل مكان فيها من مشاهد وشخوص في ذلك الزمن حتى بدايات مراحل الطفولة، وكأني أرى هناك وأمامي مباشرة على بعد ثلاثين خطوة ذلك البيت الطيني الصغير، حيث يقطنه رجل وامرأه أحبهما ويحبهما ويحترمهما كل الجيران، كما عرف عنهما محبتهما وعطفهما الشديد المتفاني في الحفاظ على بيتهما وابنهما أبنتهما الصغيرة حتي خذلهما ولدهما الوحيد الذي كان أملهما بعد الله بأن يكون المعين والعزوة في تقلبات الزمن أو في أوقات المرض والحاجة وشيخوختهما، ولكنه تسبب لهما بكل ذلك ودفعة واحدة ذات يوم بطيش الطفولة.

تذكرت هذا وما جعل الدموع تنسكب في جريان النهر برؤيتي لتلك الأم المكلومة كيف عاشت بعد أن خذلتها الحياة في يوم تالي بخطف زوجها من بيتها ومن الحياة وبعيدا وللأبد، ثم قست عليها الأيام وتوحشت وبكل جسارة راحت تقضم ما في بدنها من صحة حتى استلحقت البقايا ومعها بقية أيام العمر كدفعة نهائية واجبة السداد!

يبدو أني على طريق الصحراء المجهول دخلت في غيبوبة جديدة أو مرحلة متقدمة بالعبور نحو الموت ولم ولن أعرف كم طال بي في برزخي قبل أن يرد الله الروح

استعادة ذهني من جديد، ولكن بهذه العودة عرفت بأني فقدت الحس بأطرافي وجسدي حيث لم تعد صفعات الهواء الباردة ولا تراكم حبات الصقيع فوقه بالشيء المدرك أو المهم لعدم الإحساس بما يتسبب بأي ألم، وحمدت الله أني عدت لوعيي وان كنت غير متأكد من هذه العودة إن كانت في الحياة الدنيا، فقررت الخروج الى حيث كنت أفكر، فأسرعت ذاكرتي لليوم الذي استدعاني فيه مدير السجن إلى مكتبه، وكان هذا في نهاية أول ثلاث سنوات من محكوميتي، وجلست أمامه بكل مخاوفي وقلقي واقلها التمديد في الحكم والأقل درجة شكوى كيدية توجب حبسي انفراديا في زنزانة منفردة لمدة طويلة، ولكنه أخذ يحاور ويناور بطرق لطيفة شتى حتى أبلغني خبر موت أمي، ثم كان ما كان.

علمت بعد خبر موت أمي أيضا بأن والدي المريض كان قد سبقها بالموت، وكنت رأيته لآخر مرة حين أتى لزيارتي للمرة الثانية وكانت بعد خمسة أشهر من الأولي، ولاحظت بأنه وصل للسجن مجهدا من المسافة الطويلة المتعبة وفي حالته المرضية الصعبة وكنا بكينا كثيرا حتى أنه وصاني في أمي وبأختي ولكني رجوت الله أن يطيل في عمره وبأنه سيشفى بأمر تعالى ويرعانا ويزوجنا ويرى أولادنا، وظللت أتوسل اليه بأن يوفر جهده لصحته وعدم المجيء

للسجن مرة أخرى، وكذبت عليه باحتمال خروجي عن قريب فيما يتردد عن أخبار عفو عام عن السجناء ويجب أن لا يأتي وأن ينتظر حتى أفاجئه يوما بحضوري للبيت في أقرب وقت وربما ليس ببعيد.

ولم أعلم عنه شيئا بعدها وربما مات في اليوم التالي وكانت زيارته لوداعي وليبلغني بوصيته التي لم ولن أفي بها. وقد فضلت أمي كتم خبر موته عني وكان هو أخبرني عن شدة حالتها المرضية أيضا وبأنه ليس بمقدورها المجيء لزيارتي مع الصعوبة وبعد موقع السجن كما أنه لا يمكن الحصول على سماح لها بالزيارة إلا بمشقة والظن بأنه لم تكن توجد مثل هذه التسهيلات، ومنذ ذلك اليوم فقد بصري رؤية أعظم شخصين في حياتي وللأبد! وفقدت لاحقا معهم كل من كنت قد قلت عنهم أخ أو صديق لأنهم اختفوا بعد يوم من دخولي السجن.

بعد أن أبلغني مدير السجن خبر موت أمي، وكان حدثا عاصفاومريعا لم أعلم بأكثر تفاصيله إلا بعد أن أرجعت من المستشفى التي قضيت فيها مدة ثلاثة أيام علاجية من تبعات الانهيار القسري، ولكن ما هو أعظم إثارة هي تلك المفاجأة الرائعة التي استقبلني فيها من طاب لي بعدها أن أدعوهم إخوتي وكانوا عشرات مضاعفة من السجناء الذين لا أعرف معظمهم ومع هذا كانوا فرحين بصخب لعودتي وتعاقبوا احتضاني مرحبين بمودة عنيفة في يوم العودة هذا ثم مسارعتهم بقية الأيام بحمل همومي عن قلبي المثقل مما فاق احتماله وأعجزه الحمل، ثم قاموا بعدها بتثبيت ما تخلخل من تماسك روحي وما

أنخلع فيها من الثوابت بكل ما استطاعوا لأشعر خلال أيام بأنه ما زال لي في هذا الكون أسرة محبة ولي إخوة، فتمكنت من العودة وتعزيز الصمود للقادم وحتما لما بعد يوم مولدي القادم.

لا أعرف كيف ومتى غاب عني الوعي ومتى استيقظت وخمنت باقتراب الفجر لأحتال على نفسي وكأني أشعر بحركة الهواء أصبحت أشد برودة رغم الخدر الشامل لجسدي وفي حالة بين الحياة والموت وربما في هذا شيء من الصحة، فجسدي أقرب للموت ولكن عقلي وذاكرتني قد تحدث بفض الله هذا الخروج العارض عن مسار تدفق ذكرياتي مرغما ربما لأعرف بأمر الله وبأني مازالت حيا فعلا على هذا الرصيف وبكل شعوري ومشاعري للتعرف على شدة برودة الجو وصقيع الفجر أو لأعيش المواجهة الحقيقة مع الموت الذي حام حولي كذئب جائع مرات وجثم فوقي مع الجليد ليحتال أولا بتجميد الدم في أطرافي حتى يصل لقلبي ورأسي، فخرج ما أشعر به لأشكو منه وأنا أصارع ما ينهش جسدي في ظلمة الليل، وتحولت قوتي إلى صرخات مكبوتة هزأ بها مهاجمي وشدد بي عضات البرد القارسة فصعدت الحياة إلى وعيي بكل وضوح، وأحببت أن أتأكد من وجودي في الحياة في حمد الله وشكره.

ولكن بقايا حياتي وبقية الأحاسيس ما زالت في أسرها تحت طبقة الجليد المتجمدة فابتسمت مداعبا روحي وأنا أغمغم لها في صمتي باللحن الشاكي وبالعبارة التي سبق وسمعتها وحورتها فأردت أن أعيد ترديدها لها، فصدى

اللحن المتردد في تجاويف صدري وفي كهوف رأسي ما زال يملأ بعض الفراغات وروحي الباردة بحرارة الألفاظ والعبارات التي ولجت وعوضت ما ضل منها طريقه الي أذنيّ في الظلمة: ويا ليت يا ليتني و يا ليت..

ويا ليتني ما ولدت ولا جيت!

عاد النشاط لذهني وذاكرتي مع حس بهروب ذئب الجليد بعيدا وفشل مؤامرة التجميد، واستأنفت رحلة التذكر فيما حدث لي بعد علمي بموت أمي بأسابيع، فقد أتاني طلب إدارة السجن فعجبت ثم تشككت وأوشكت أن أصاب بحالة ما، ولكن بتذكري أن والدي ووالدتي قد ماتا وليس من أحد أقلق بشأنه أو سيتسبب لي موته بانهيار سوى أختي! وارتجفت أوصالي، وسرت في ذهول وخدر وأنا أجر أقدامي كأني أساق الى المقصلة لتنفيذ الحكم!

وفي الطريق سارعوا بإخباري بوجود زائر لي وكان في غير أوقات الزيارة، وبالكاد تذكرت اسمه وزاد من تأكدي بأنه جاء لينقل الي الخبر، وحاولت أن أتخيل صورة وجه الزائر حيث رأيته أول وآخر مرة منذ مدة لا أذكرها حقا وهو الزائر الوحيد الذي أتى لزيارتي بعد والدي، وصافحني هذا الرجل وعرفني بنفسه وبأنه زوج أختي الوحيدة والصغيرة، وحولت غضبي على ما سمعت وكل شيء إلى صمت، لأنها حقا طفلة صغيرة جدا، ثم ساد الصمت بيننا حتى أنهيناه بكلمات وداع، وقد ترك لي عند المسئول بعض النقود والملابس، ثم لم أره بعدها إلا في هذا اليوم والذي كدت أجن فيه من شدة المفاجأة والفرح

وأنا أرى أمامي أختي الصغيرة وكنت رأيتها آخر مرة بينما كانت تلعب مع بنات الجيران حول عتبة الباب، وها هي الطفلة تقف أمامي كامرأة ولكنها صغيرة داخل عباءتها وأحجبها، ورغم كل شيء كانت فرحتي أكبر من عظيمة برؤيتها وهي البقية الوحيدة من أهلي وأسرتي حتى أنها خففت من صدمة الغاية من الزيارة والتي عرفت بأنها أيضا كانت زيارة وداع!

لقد أبلغني زوجها بأنه تم نقله منذ مدة كما قال إلى مدينة في أقصى جنوب البلاد لم يذكر لي اسمها وربما عن قصد، وأخبرني أيضا بأنه قام بسداد ما تبقى من إيجارات البيت الذي سكنته أمي وتم تسليمه لأصاحبه، وعرفني أيضا بأن ليس هناك من تركة بعد والدي وأمي، ولكنه سيضع لي في الأمانات مبلغا بسيطا سيمكنني من تدبر أمري عند الخروج! وأكد لي بأنه لا يعرف عنوانه الجديد أو البلدة التي سيعيش فيها، وربما قد يأتي يوما إلى هذه البلدة لزيارتي.

ورحلا!

وأنا لا أعرف لماذا شعرت في أعماقي بأنه ربما هو رحيل أبدي، كرحيل أبي وأمي.

بإفاقتي الجديدة والعودة لاستئناف إحساسي بالحياة بممارسة أحد مظاهرها عادت لذاكرتي صورة البيت، الذي حوى ذات يوم بين جدرانه أماً وأباً وأختاً وذكريات لعدد من السنين، ولكني تنبهت بخروجي الى مستوى آخر من

الوعي انتقلت فيه من حقل ذكريات الى عودة واقع آخر وحقيقي حيث الزاوية التي طال بي فيها وقوفي الباكي أمام المارة، بأني عدت الى حيث بدأت ذاكرتي ببسط مخططات حارتي القديمة بأدق تفاصيلها أمام بصيرتي على اللوحة الخيالية، في صورة حياة مختفية في تجسد المدينة الجديدة بكل تفاصيلها الكاملة والتي طمست كل ما الماضي فأصبحت أتخيل وجود بيتنا الطيني الصغير وظهر امتداد الزقاق الترابي الذي لم يعد يحمل أي ذرة من شبه في النسخة الجديدة التي أكدت بأن حياة الحارة وجميع ناسها بعد نشوء حياة المدينة الجديدة لم تعد راغبة باستمرار العيش في البيوت القديمة وجدرانها الطينية والجصية والحجرية بل لن تتحمل وقوفها على وجه أرض الحارة، وسرعان ما تغير كل شيء عليها في تطور لكل شيء والنمو والتجدد في مدار ساعات اليوم، ولهذا رأيت ما رأيت من هذه التغيرات للحارة والبيوت والشارع ولكن ما الذي حدث لمن سكن البيوت؟

انهم ليسوا مادة، سهلة الهدم والبناء! انهم الجيران! سلسلة كبيرة من العائلات المتصلة والمترابطة عاطفيا وأسريا وكما أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام بالخير ببعضهم، ولكن يبدو أن لبعض عناصر التحضر مفاهيم تتطلب التنازل أو التخلي عن بعض القيم وأخلاقيات الماضي والتحاشي عنها كوصمة عار بالتخلف، ولهذا لابد وأن أكثرهم يخجلهم ماضيهم الطيني بجميع تفاصيله فكرهوا رائحة الغبار ورؤية تربة الأرض حتى في اليوم المطير، وبأسرع وقت دفنوا قتلاهم أنفة وغرور فتوارى كل الماضي بدك البيوت مع الأزقة

والمزارع حتى تراب الأرض قبر تحت طبقات سميكة وممتدة من الأسفلت والإسمنت والبلاط والنجيل المزروع وليختفي كل أثر للطين وللأبد، مع ما شمل من كل المدينة!

من يدري فقد تكون رؤية التربة في المدن ستكون من عجائب وغرائب عالم البراري البعيدة عن المدن، وكانوا سئموا رؤية أعشاش وأقفاص الدجاج والحمام الأرانب في الأسطح وزرائب الأغنام الملاصقة لأبواب البيوت في الشوارع وأخذت تؤذيهم روائحها وأعلافها وكانت أهم المقتنيات لكل بيت، وهم لا يتخلفون أبدا عن مواعيدهم الحميمة المحددة معها في حرص على إطعامها ورعايتها وحب البقاء بقربها وقضاء أجمل الأوقات معها في تفقدها والاستمتاع باللهو بينها وملاحقتها كبارا وأطفالا وذكورا ونساء، ويبدأ يومهم ويختتم بالأهم بتحصيل ما تجود لهم به من الخيرات، بما يسقيهم ويملأ البطون ويرمم العظام، وجميع ذلك أتت عليه تصاريف الزمن الذي أصبحت تأتي به النقود للجيوب بسهولة وبها تأتي ومن كل مكان الأغذية طازجة ومغلفة من المصانع والمتاجر والطعام يصل سريعا من المطابخ الى المائدة وكان يتعسر ويتعذر على الكثير مجرد رؤية بريئة للمبالغ الكبيرة مهما بذل وسكب من لترات وبأطنان العرق بمرور الأيام في أعوام.

وجدت في تخيلي لرؤية حارتي القديمة واسترجاع صور البيوت والأزقة القديمة وتشككي من فائدة معلومة مكان بيتي الحقيقي فأغلقت كل الصفحات والمخططات وألغيت خطة البحث عن المواقع والبيوت لأبحث

في الناس التي سكنتها لأجد فيهم الأصالة، فلجأت لرؤية البصر الواقعية وبلا خيال، فبدأت أقلب النظر وأدير رأسي في أي اتجاه لإيجاد أي أحد ملمح ما من سكن حارتي القديمة ولتكتمل مشاهد صور المواقع مع الإنسان، وراح البصر يتمرس ويدرس ويتفرس في أي شخص متحرك أو واقف وأي جالس من الناس والمارة في هذا الشارع والحارة، لعلها تجد هذا الأحد ممن كنت عرفت فيما مضى وأتعرف عليه بعد أن غير الزمن مدينة كاملة تغييرا جذريا شاملا، أو لعل أحدهم يتعرف علي أنا، وتعمدت السير محاولا إبراز نفسي ولو بالقيام بتحركات خرقاء للفت النظر والانتباه، ولكن وللأسف!

فعيناي لم تعثر على أي عينة، وربما الزمن أخفى أيضا ملامح ناس الحارة مع بيوتهم وملامح حياتهم كتربة أرضهم الموءودة في لعنة تحضر، حين تعمد دفن وإخفاء معالم عمر من زمن الأرض مع إنسانها. وبعد يأس همّت أقدامي بالتحرك بهدوء مع بدء تسرب سموم الإحباط بما حقنه يأسي في نفسي وأصاب أوصالي بالفتور واختلاط أفكاري.

بدأت بخطوة جديدة أمست فعلا هي أول خطوة من خطوات أقدامي للسير هائما في أطول طريق في ليلتي وربما في الحياة ونحو لا مكان، ولا عودة أو رجاء، وكانت هي بداية قراري بالرحيل في محيط الظلمات وبقارب بلا مجداف ولا دفة وبلا صاري وأشرعة، فلا خيار لوجهة أو عودة إلا الريح والأمواج لتدفعني الي العمق والى المصير المجهول في ظلام مترامي حيث لا يابسة ألا في قعر المحيط.

بالخطوة الأولى أخذت أقدامي في آلية دون أي قيادة أو تدخل، فعقلي متحجر وفارغ من أي خرائط وبلا أي أهداف، وتابعت لمسافة قصيرة قبل الإبحار الكبير للعمق وربما للغرق المؤكد، واذا برمشة عين في التفاتة تنتشلني بقوة الى ما ظهر لي بأني أرى ملامح مألوفة، ولشخص معروف يحملها شاب يقف على بعد أمتار قليلة على الجهة المحاذية لمساري، وكان يمد ذراعا تستند راحتها على جانب الحالق الرخامي لباب منزل جميل يتباهى بين صفي المتاجر الممتدة في الاتجاهين ويقف على بوابتها ذلك الشاب المشتبه بحمله الملامح المألوفة، ولا أعرف كيف وصلني صوت خفقان قلبي بينما يرجف من شدة السعادة ولا كيف قطعت الطريق لأصل لتلك الجهة المقابلة لأكون في المكان والمسافة والأقرب للنظر اليه وبالإضاءة الأنسب لأقرأ وأدرس وبدقة تفاصيل وجه الشاب وأحصل على الدليل الحاسم لحظة التقاء عيناي بعينيه إذ فغر سعد بن خليفة فمه دهشا برؤيتي وتأكدت من قسماته بدون ذرة شك وبأنه أيضا عرفني حق المعرفة ولذا فقدت السيطرة على مشاعري واندفعت نحوه ولم أشعر بركضي وهتافي مناديا باسمه بصوت عال وفي لهفة العطشان في قلب صحراء برؤيته ينبوع ماء فصرخت من سعادتي بهذه الهبة الإلهية التي ستكون أول بشرى لعالمي المتفائل الذي توقعته:

– سعد؟ سعد ابن خليفة؟ الله! أكاد لا أصدق! لك الحمد، كم أنت حليم يارب!

تيقنت الآن وأنا في حالة الجمود الثلجي بأني حقا قفزت مسافة الطريق نحوه في عدة وثبات بعدد أصابع كفي فقط قبل أن أتجمد في مكاني كما يحدث لي الآن في الحقيقة على الرصيف عند مواجهتي للصدمات الشديدة، كالتي حدثت بعد أن فغر ابن خليفة فمه الواسعة من المفاجأة وبأوسع من اتساع فمي من فرط سعادتي ثم رأيته يهتز رعبا ثم يدير وجهه عني ويحاول حجب عينيه ووجهه بكفه قبل أن يلتف بكامل جسمه في هلع ويسرع بدخول المنزل مغلقا الباب خلفه وبقوة.

لأتسمر في مكاني مشلول التفكير ولوقت ما لا أعيه ولكني بلا شك تحركت بهذا الحس المتخشب من مكان وقوفي وبطريقة ما، وحين تنبهت وجدت نفسي في مكان ما، ولم ألتفت خلفي ولا يمنة أو يسره ولا لأي وجهة لأنه والحق تخلت عني بصيرتي مع بصري تماما وكل رغبة بالتفكير في أي فكرة أو البحث عن أي شيء، ولكني أحيط بدرجة استوعب بها أني ابتعدت كثيرا عن محيط المباني، ولزم اطالة وقوفي حتى أتمكن من استعادت توازني من اللطمة الرهيبة التي تلقيتها من صديقي سعد ابن خليفة وأخذت أخرج من ذهولي وعمق الصدمة في تساؤلات بذهول أو بلاهة وأنا أنظر الى لا شيء باتجاه الأرض:

- يا الله! يا رحيم! أحقا هذا سعد؟ ابن خليفة؟!

أحقا هذا من كان أخي؟ وأعز صديق؟ أيكون فعلا ابن أقرب جار؟

نعم ! وهنا وجوار هذا المكان كان بيتنا القديم، حيث ولدت ونشأت؟ نعم هو نفس المكان الذي كنت أقف فيه وأمام الموقع مباشرة طوال هذا المساء ولكني! لم أتمكن من التعرف عليه؟

والمؤكد بأنه لم ولن يعرفني، ولا أي مكان هنا ولا جميع أهل المكان ..

وجدت نفسي لا أريد أن أتحدث أو أفكر أو أدري لماذا وكيف وبماذا؟

فابتسمت ساخرا وأنا أهم بالتحرك للمشي وسرت في طريقي ولا أعرف لماذا أبتسم وعلى ماذا؟ ورحت أسير ولا أدرك لماذا أسير؟ ولا أين أتجه وبشأن ماذا؟

ظللت أمشي ولا أرغب برؤية شيء وأصبحت بعد فترة أسمع وقع خطواتي في الصمت المحيط مع الزحف الفاتر للنعل على الأرض، ولم أصل لتفاصيل شيء حتى بعد أن هضمت أقدامي مسافة طويلة مفضلا ألا أقف وألا أنظر خلفي، ربما خوفا من أن ترى عيناي شارع حارتي وموقع بيتي مرة أخرى أو سعد بن خليفة آخر.

اكتفيت بالتقدم سيرا حتى توقفت مجبرا، وحينها لم يعد تحت أقدامي طريق، ولا حولي وأمامي شوارع وأي مساكن، بل حائطا ممتد يترك الخيار للاتجاه فقط يمينا وسلكت فيه ثم توقفت ثم ألتفت أنظر الى الأرض حيث اتجاه المدينة ولم أرفع بصري نحوها ومن فوق كتفي خاطبت حارتي القديمة ومن يسكن فيها بأسف وحسرة والألم يعتصر قلبي وودعتهم جميعا قائلا:

– حتى أنت يا حارتي .. يا موطني ومسقط رأسي!

وحتى أنت أيها الشارع! يا من ترعرعت فوق ترابك

وامتلأت مرات بطني بترابك وجوف صدري بغبارك!

وبمرارة تمزق أعماقي:

– يا من كنتم جميعكم لي أهلا ومنكم أهلي وربيت بينكم

وكنتم جميعا داري .. وأهلي ووطني!

والآن أنكرتموني! وجميعا رفضتموني!

بل .. رفستموني. وفي يوم مولدي الجديد!وجعلتموني يتيما ووحيدا حقاا

استمرت أقدامي بالسير في جانب من امتداد طريق ترابي ظل يطول ودون أن ألتفت أو أحاول النظر على جانبيه بل كنت أغلق بصري لما بدأت أتبن بزاوية عيني مرري بأناس وكانت تتكاثر فروعني اكتشافي بأن تلك الطريق أعادتني الى حارة أخرى، وأني أسير في شارع شعبي مكتظ، ففضلت ألا أرفع رأسي نحو شيء أو إنسان حتى لا أرى وجها وأتفحصه وأجده مألوفا أو أتخيله فيصفعني بفرار آخر أشد قوة، ولذا رحت أخترق الشارع المزدحم بالناس والمكتظ بالمحلات المتنوعة الأنشطة، وما جد أنه أخذت تراودني هواجس بأن الناس يتجنبوني، وأن أنفار منهم على جوانب من الشارع أو وسطه

يتراكضون هربا مني، بل زاد توهمي بأنني أسمع منهم كلاما مصاحبا كالحقيقي عند إقبالي أو تجاوزي بقرب المحلات التجارية والمطاعم والبقالات وحشود المخابز!

وهكذا لاحقتني الشكوك عند مروري جوار البيوت والفلل وتحت المباني بأن هناك أبواب أو شبابيك تفتح وتغلق بسرعة وبقوة ومن خلفها أسمع من يعلق بهمسات سخرية عالية وهمهمة وقهقهة، وبي قناعات بوساوس تصدق الأصوات وما أسمع فيها من عبارات! فلا أجرؤ على النظر نحوها وتجمدت نظراتي نحو هدف لا يعني سوى

الرحيل! الهروب!

مع خطواتي الثابتة أتضح لي الهدف الذي يشعرني بأنه قرار ويجب ألا أحيد عنه بمساري الصامت للخروج هربا من البلدة الخائنة في فرار الي المجهول، وفورا.

وتوصلت خلال سيري لفنون ممارسة التفكير وتعرفت على السر وراء أغلاق السجانين والحراس لباب السجن ورائي فور خروجي بسرعة وبقوة، والسر يرجع الى طول خبراتهم وبوجوب الحرص الشديد على عدم تراجعي عن الخروج ومطالبتي بالعودة والدخول من جديد، فلديهم البوابة الرئيسية للخروج الى الحبس الكبير وفي هذا السجن من المآسي والعواقب والهموم ما يخلق الرغبة لدى أكثر السجناء بعد خروجهم ومواجهتها للهرب السريع منها

بالعودة للحياة في الحبس الصغير وليس بينهما سوى تلك البوابة فقط، ولكنهم يعلمون بأن هناك في تفاصيل الحياة فرق أكبر من كبير!

وفي عودتي الذهنية هذه سارعت بالتقاط خيط إحساسي الفعلي بالحياة بمقدرتي على البدء من حيث توقف بي الإحساس، فوجدتني أواجه في الساعة الأولى من سجن الحياة الحقيقي الكبير جدا في الحجم وفي قوات الحراسات وهي الأكثر تنوعا والأكبر حجما والأعظم قوة وتجهيزات مما في أي حبس صغير، وفيها أحدث المواصفات للسحق وانتزاع الاعترافات والإرادة وأسهلها انتزاع الكرامة، وأبسطها انتزاع الروح والحياة، ولكن ربما السبب لهذا وجيه جدا، لأن فيه من النزلاء ذوي قلوب لم تكتسب في الحرية والأمن من العقوبة إلا الجرأة في اغتصاب الحقوق والخيانة لكل أمانة والتنكر، والتجاوز في الاستعلاء وبالحقد والحسد وبانعدام العطف ربما لانعدام الإيمان أو الضمير أو الإنسانية، فاستلزمت هذه ما يناسبها من زيادات في القوات والتقنيات وتنوع الشراسة والتعامل وأساليب العنف للسحق للسيطرة.

كما توصلت أيضا الي أني في السجن الصغير كنت وبالأقل أعرف من أنا؟ وأعرف كل شيء عن نفسي حتى مصيري فيه، كما أعرف بدايات ونهايات أيامي ومعظم ما سيجري عليَ فيها وفي جداول ثابتة، وأعرف بالتمام أين أسير وأين أجلس وماذا ومتى آكل وماذا ألبس ومتى وأين أنام؟ فأعرف مثلا نوع طعامي وأين فراش منامي المضمون؟

وفيه يعرفني الجميع تماما وكما أعرفهم! وتشتد بيننا الألفة والتراحم وتذكرت تسابقهم للقائي بخروجي من المستشفى ببهجتهم وابتساماتهم ثم إخراجي من أحزاني.

كنت أجد فيه الكثير من الأحباب والرفاق، ولكن!

هل وجدت شيئا من هذا في سجني الكبير؟

هل وجدت مثقال ذرة واحدة من أي شيء مما سبق؟ الحق! كل شيء على النقيض تماما!

حتى أني وجدت منذ لحظات من كان صديقا بل أخا وأصبح واحدا من الجميع وكالجميع في السجن الكبير، عرفته وتعرف عليَ ولكنه لا يريد أن يذكر أو يتذكر أنه كان يعرفني!

فالحارة وذاك البيت الذي ولدت فيه والشارع كل ما كان فيه وما جرى، والكثير من الأحياء والجماد لم أجدهم حتى أتعرف عليهم، وما وجدت أنهم جميعهم أيضا لن يعترفوا بمعرفتي أبدا بل قالوا لن تسرهم أو تشرفهم معرفتي، ككل هذه المدينة، ولو سئلت أكنت أعرف شيئا عن هذا المصير؟

فإجابتي هي بنعم! ويحتمل أني توقعت شيئا من هذا إلا ما وجدته وواجهت مع ذاك الجار والصديق والأخ سعد ابن خليفة وكل شوارع الحارة.

وفي الحقيقة سبق وفكرت بالهرب من المظلمة مرات في العودة الى السجن الصغير وقد ولدت من جديد كما قالوا وبلا ذنب، وذلك بعد فشلي الكبير في السجن الكبير حيث قمم الشرور ويعيش فيه عمالقة الخطيئة، ويكفي في هذا القيام بعمل صغير أخلاقيا للخروج منه نحو الحبس الصغير، وكانت الفكرة أكثر جاذبية لولا وجود فكرة الحتمية بالعودة بالخروج مجددا للسجن الكبير والى مشاهدة أمثال سعد ابن خليفة وأهل البلدة كلهم ابن آل خليفة أو مجتمع إخوان خوان وهذا كافي لأن تكون الفكرة برمتها مميتة لي رعبا!

فقررت أعماقي الرحيل وعدم البقاء في البلدة بعد الآن، لأني سأكون وسأبقى دوما كيوم خرجت!

أنا منزوع الأنا ومنتزع الذات والكرامة كإنسان، لأني خرجت الى كل سعد بن خليفة وأنا فقط شيء كالإنسان ولكن بلا إنسانيته، لأسير بعدها بينهم في خطوات مهزوزة، عاريا من الثقة، فاقدا للسند بلا ظهر ولا صحبة، والأهم مقتول المستقبل ولمصير مجهول.

لأنه يتأكد مع توالي الأيام كل الغير مضمون وتبدأ أولها بالطعام واستحالة إيجاده وقبله المكان للمقام وللمنام، وهذه كلها تحتاج العمل! وهذه الفرصة الغير مضمونة أبدا وربما المستحيلة في مجتمع سعد آل خليفة، وللحقيقة لهذا السبب فقط تجد بأن أكثر المواليد يهربون دوما وسيهرب أكثرهم ولابد أن يهرب، ولكن الي أين؟

فمنهم يختار العودة إلى حيث خرج، وهو فعلا بهذا يعود في أول الدائرة لمصير لا نهاية!

وعدت من حالة لا وجود لأتذكر بأني كنت منذ ست ساعاتٍ أهيم في لا مكان ولم أتحدث إلى إنسان ولا أريد أن ينظر إلى كائن كان، أجوب على قدمي كل الشوارع في كل الاتجاهات وليس لي أي هدف أتجه إليه سوى الرحيل الى البعيد عن البلدة، الى حيث لا مكان أقصده أو مخلوق أبحث عنه، وكذا سرت في كل الشوارع وبأكثرها أمر فيها مرارا وتكرارا، لأني أهرب من الشارع لأجده نفس الذي تركته.

كما كنت أهرب ممن أظن أنه يلاحقني ليشمت بي، وأن جميع المارة وأصحاب محلات البقالة والمطاعم والمقاهي وكل المارة يعرفون تماما من أنا؟

أشعر بأنه كتب على ظهري:

تحذير! هذا السجين هو الذي خرج للتو من بوابة السجن!

كأن من أمر بهم يقرؤون بطاقة سجني التي ألصقت على جبيني ومعلقة على صدري وظهري، وكتب عليها اسمي وجريمتي ومعها التحذيرات من الاقتراب واللمس وأتجاوز الناس ويخيل لي بأني أسمع يقال عني وأنا المعني به فقط وكل ضحكات عابرة وكلمة تائهة وعبارات طائشة في الشوارع هي موجهة ضدي ونحوي، وحتى أني أشعر بأن كل من قال ذلك ما زال يرددها ويأخذ

بملاحقتي، فأخذت تتسارع هواجسي مع خطواتي وبلغ بي الأمر أني فكرت بالركض هربا ولكن الفكرة أخافتني أكثر باعتقادي أنه سيجبر الجميع أيضا على الركض وملاحقتي بالعدو خلفي وهم يرددون نفس العبارات المهينة، وهناك احتمال أن يستيقظ الصبية ويخرجوا لمطاردتي ويقذفونني بالحجارة!

كنت أخطو وأنا في جهاد مع هذا الهوس والوساوس حتى وجدتني شارفت على نهايات العمران والمباني وبدأت جهادا آخر للظلمة ووعورة الأرض التي أسير عليها وما فيها من الحفر والهاويات وما عليها من العوائق وأكوام النفايات والمستنقعات القذرة.

هي أكثر من ست ساعات كنت أعيشها بطول سنوات السجن وأنا أسير كالآلة، أمارس الهرب من الناس بالتوهم ومن الشوارع متألما مكلوما، ووجدتني أخيرا أفيق أول مرة هنا، على هذا الرصيف البارد، وفي أقصى بعد عن المدينة وأقرب مدخل لبوابة طريق المسافرين الى ما وراء الصحراء، وأنا أعاني قرصات الزمهرير يسلخ جلدي والجوع والعطش يفري أحشائي، والدمع المالح تحول مرا علقما في حلقي ويزيد بي لهيب العطش.

وكأن الله منحني القدرة على استطعام أنفاس الفجر القادمة تهب بعبق رمال الصحراء وهذا فقط الذي بدأت أحس به من جميع ما يحيط بي، فأنا لم أر أي كائن ولا زلت لم أسمع صوت لأي كائن تحرك أو أصدر أي صوت، وان توقعت بأني ميت فعلا، فأنا لم أعد أملك الحواس القادرة على الرؤية والسمع والإحساس الواقعي، وهي صورة وطبيعة الموت الحقيقي.

فأردت أن أجد وسيلة لأتأكد بأني حقا ما زلت حيا! فحاولت إخراج كل فوضى في نفسي بما أظنه أقوى صوت لعلي أسمعه بأذني وأتيقن بأني أعيش ولكن! كان قلبي يتحدث ولا يصل أي صوت، كأذني جماد، وربما أني لا شيء، أو فيما تبقت لي من لحظات إضافية على البدء بإتمامها لآخر ثانية، فتساءلت فيها حول الخلاصة الأخيرة في تجربة حياتي:

– هل كنت أنا المولود من جديد الذي ذكروه؟

– وهل أصبحت كالمولود الجديد كما قالوا في السجن؟

– الجواب لا! ولا أظن!

– فالمولود يحتاج إلى قلب مفتوح، والى حضن يضمه

– والى يد ترعاه حتى يقف، ويمشي، ويتكلم ويشب كانسان.

– حتى المولود الملقى على قارعة الطريق كان سيجد إنسانيته

– كان سيجد كل حنان وعطف وفي أكثر من قلب.

– وتحمله أكثر من يد وبكرامة حتى يقدر على العيش كانسان.

واندفعت أنفاسي تلهث بيأسي في الهواء:

– نعم! خرجت الآن وقد كفّرت عن كل الذنوب بإذن الله!

– نعم! أنا كالمولود في هذا اليوم! فربما بلا أي ذنوب.

– ولكني! أيضا لم أجد ما وجده الذي ولد في بيت دافئ.

– والذي وجده من ولد وألقي به على قارعة الطريق!

وأخيرا استسلمت وأسلمت للفكرة:

– بأني أنا ولدت فعلا، وكانسان ولكن!

ألقي بي على هامش الحياة...

وما أنا إلا كهؤلاء الذين يولدون في كل يوم وهم

يحملون عاهات الموت.

وليموتوا بها غدا أو في نفس اليوم!

وفي انتباه لم أعد أدرك إن كنت حقا في الدنيا أم في حياة الآخرة وأعيش الآن في برزخ أو في سمة من سمات الموت والذي قد دخلت في تجربته منذ فترة، ولكن مع استمرار التجمد والخدر لكل جسمي يزيد من توقع استمرار بقائي على الرصيف البارد حيا، وكأن الله أراد أن يشعرني بأنه معي ومع كل انسان يدعوه في الشدائد ويلجأ اليه في أكبر الهموم والى كل من يحتاج الى رحمته والعون إذ نقل الي النسيم البارد لغطا يشبه أصواتا كثيرة وفي جلبة متقطعة ثم عبق صوت بشري جميل مرتل لكلام من القرآن وتلته أصوات مأمومين بقولهم: آمين!

فأيقنت بأنها صلاة جنازتي، وإذا بالصوت يعود أكثر وضوحا في أذني:

" والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى

وللآخرة خيرٌ لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك

فترضى، ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى ...."

ويكمل القارئ السورة وأنا أتبعه بقلبي ونسيت كل ما أنا فيه كليا فأنا بيقيني أني متوجه الى مثواي الأخير حتى بعدما انحسرت الأصوات لفترة ثم جاءت مندفعة مرة أخرى في جلبة أشد ثم أحسست بأن كتلة جسمي المتيبسة تحرك بلطف ثم تهز بقوة فقلت ها هم بدأوا بحملي على النعش إلى المثوى وفجأة سمعت صوت قريب ينادي مرات ومرات ثم راح يستنجد بالناس:

- يا رجال! يا عرب! النجدة!

هنا رجل بين الحياة والموت! أسرعوا بالغوث!

النجدة!

كنت فعلا في رمق أخير، لأني بعد سماعي لأصوات المستغيث لا شك فقدت كامل أحاسيسي في حالة إغماء شديدة لا أعرف كم بقيت فيها ولكني تنبهت لاحقا لشبح ما يحاول أن يضع في فمي قطرات من شراب ربما القهوة وحين تشجعت وحاولت تحريك لشاني بإرادتي وكان تم ترطيبه مع شفتاي فاذا بي أسمع صوت الشبح يبتهج وهو يحمد الله بصوت عال ويطلق لسانه

الشهادة العظمى بالإيمان بألوهية الله والاعتراف برسوله الكريم وأجتمع آخرون عدوا.

وبعد أن منّ الله عليَ بمعظم أحاسيس الحياة وزادت مقدرتي على الإدراك والفهم وتحسن نطقي بتدرج عرفت بأن من على أيديهم كانت حسنى إنقاذي هم جماعة من المسافرين على شاحنة نقل للسفريات البعيدة من نوع اللوري وكانوا في طريقهم لدخول بوابة الصحراء وفضلوا التوقف لصلاة الفجر ولتناول الإفطار وبعض الراحة ثم مواصلة السفر، وأبتعد أحدهم بعد الصلاة للتأكد من أحاسيسه مما رآه قبل وقوف السيارة وبعد أدائه الصلاة.

لم يكونوا كابن خليفة وتركوني، بل أخذوني معهم وفي وجهتهم، وقد عرفوا كل شيء عني وكل تفاصيل حكايتي، وكيف أصبحت أسوأ حالا من اليتيم ولم يعد لي أهل ولا بيت ولا عزوة في المدينة المجاورة التي رحلت عنها وشققت الطريق المجهول الذي وجدوني عليه، ولقد أهتموا باستردادي لعافيتي شجعوني على تقبل الحياة بكل ما فيها من حلو ومر وشحنوا قلبي بمزيد من الإيمان بما وهبني الله من نعمة في عمري الجديد وابتلعنا طريق الصحراء الواسعة لتهضمنا في مكان ما وراءها، وهناك بدأت حياتي الجديدة، وأصبحت طوال هذه الحياة دائم الترديد لسورة الضحى وتبكيني بشدة ثم أتابع ما أنا عليه، وتحقق ما قيل بأني بدأت كمولود جديد!

****

نبذة عن المؤلف

محمد ساهي آل عبدالله

السعودية _ مكة

_مدرس ومترجم بعدة وزارات سعودية

أعمال تحت الطبع:

_ أغاني عاشق ليالي القمر

_نزيف ليالي القمر

_ عزيف ليالي القمر

الفهرس

نهاية المتآمر "الفرخعون" ٥

عاشقتا الفجر ١٠٨

مولود من جديد ١٣٦

نبذة عن المؤلف ١٨٣

الفهرس ١٨٤